

28 ديسمبر 2018 - نسخة حادية عشرة بتصليح أخطاء طباعية

ورد الـجـلـيـد

مجموعة قصصية – أحمد الخميسي

اهداء

إلى هانيا ابنتى ، ومنالى فى الدنيا.

For Anna, my daughter and my world fulfilled.
أحمد الخميسى

- ظهر الغلاف

بهاء جاهين

لابد أن يكون الكاتب عاشقًا للإنسانية بحق, متحدًّا بآلامها وآمالها, لكي يجيء ما يكتبه «شعرًا» مثل الذى يطربنا فى قصص أحمد الخميسي.

د. محمد المخزنجي

تمثل قصص أحمد الخميسي نماذج عالية لقدرات كاتب من كتاب القصة العربية الكبار، فهو كاتب يمنح نماذجه القصصية شمول الرؤية، التي تمزج - برهافة ورصانة معًا - بين الإنساني الخاص والوطني العام، بين التخييل المجنح والواقعية الدافئة. إنه كاتب كبير ينهض على روح متعفف، وثقافة واسعة عميقة تنطلق من المحلي إلى العالمي، ودراية نادرة بأرفع نماذج الأدب الإنساني.

الناقد الروائي علاء الديب

أنا لا أقدم أحمد الخميسي، فالحياة الثقافية والأدبية تعرفه جيدا. إنه كاتب استثنائي يضع القارئ أمام أخطر وأهم القضايا السياسية والاجتماعية بدون مباشرة أو خطابية. أهم ما في العالم القصصي لأحمد الخميسي البلاغة والاقتصاد اللذان تتميز بهما جمل الكاتب والعناية الفائقة بشكل القصة وبنائها بما يكشف عن عمق قضيته وأبعاد موضوعه. هو باختصار قَصّاص وكاتب نادر.

الكاتب الكبير يوسف إدريس

"هذا نموذج آخر من "القصة الجديدة"، انتفاضات الثورة على "القصة" و"الحكاية" والتسلسل المعقول، تحطيم هذا كله، وخلط الحطام جيدا ورجه بشدة ثم تركه يؤثر فى القارئ عن طريق مذاقه العام.. أما عن الكاتب - فهنا المشكلة ..

و المعجـزة والشـيء الـذي أرفـض تصـديقه. أحمـد الخميسـي، الـذى كنـا نـداعب محاولاته لكتابة القصة نفس مداعباتنا لـه وهو صغير. أحمد يكتبهـا؟! قصة من النوع "الجديد" أيضا، وكالسيد البدوي بأسنان كاملة، وأكثر، بذقن وشارب، ولولا بعض هنات قلة الخبرة، لقلنا النضج الكامل؟! "

مجلة الكاتب – ديسمبر 1966

<u>قصص المجموعة :</u>

غلطة لسان – الشاهد - قدمان – على ربوة – فرحة صغيرة – الغنيمة – ورد الجليد – الغريب – غدّا - رشفة عشق – تحرش – هدية بسيطة – وقت حلو - اتصال – بيسا – تغريد عندليب –رسائل في القلب + جراحة

غـلطة لسان

دخل الكاتب العجوز إلى حجرته معتمدا على ذراع ممرضة. رقد على سريره وتعرض أثناء نومه لأزمة قلبية أدت إلى وفاته. لكنه قبل أن يموت بساعتين كان يجلس فى صالة بيته الواسعة ويتحدث مع أحد الصحفيين باستفاضة عن الوضع الثقافي. سأله الصحفي:"مَنْ في اعتقادك أهم أدباء جيلك؟"، نوَّه الكاتب وهو يتنفس بصعوبة بعدة أسماء ثم أطبق جفنيه نصف إطباقة وقال:"ولا ننسى عبد العال شعبان". ضيق الصحفي عينيه- عينيه هو وليس عيني الكاتب- واستفسر مدهوشا:"شعبان؟!". أكد الكاتب: "نعم. لعله أفضل أدباء ذلك الجيل وأبقاهم أثرا". لم يكن الكاتب واثقا من الاسم الذي لفظه لكن حرف العين كان يخايله كلما حاول تذكره. أخيرا نهض وأنهى اللقاء معزيا نفسه بأن الصحفي سيكتشف الاسم المقصود، فقد كان الأدباء في جيله قلة. اتجه إلى حجرته، ورقد على سريره، وعندما استراح طفا الاسم الحقيقي على ذاكرته. عبد العاطي وهدان! وعاهد نفسه أن يتصل بالصحفي ليصحح الاسم ما إن يفيق من النوم، لكنه لا أفاق ولا صحَّح.

موت الكاتب كان مفاجأة وبشكل خاص للصحفي الذي أدرك أن القدر أسعده بالخبر المحزن، لأنه آخر من سجل مع الأديب حوارا سيصبح ضربة صحفية. صباح اليوم التالي خرجت الجريدة على قرائها بعنوان عريض: "وحدنا ننفرد بحوار اللحظات الأخيرة". أثار الحوار اهتماما واسعا، لكن الكثيرين نسوا لسبب ما وفاة الكاتب واسترعى انتباههم اسم "عبد العال شعبان". تساءلوا من يكون هذا الذي أشاد به الأديب قبل رحيله بساعات؟ بعد يومين امتلأ سرادق عزاء الأديب بالمفكرين وبعض الشباب ممن تصادف وجوده بجوار السرادق. وراح عدد من الحضور يميل بأكتافه على من بجواره يهمس مستفسرا: "هل سمعت بعبد العال شعبان؟". الغالبية كانت ترفع حواجبها بدهشة إشارة إلى أنها لم تسمع بالاسم. البعض استكثر أن يبدو جاهلا، وهكذا حين سأل روائي عريض الكتفين ناقدا قوي البنية عن شعبان أجابه على الفور: "عبد العال شعبان؟! يارجل! أيعقل أنك لا تعرفه؟!". أجاب الروائي بنبرة المذنب:"الحق.. لا أعرفه"، فقرعه الناقد على الفور: " اقرأه! اقرأه إذن!" اعتدل ينظر أمامه وراح يضرب ركبته بقبضته: "عبد العال شعبان! يارجل! عبد العال!". انتقل رد فعل الناقد همسًا من أذن إلى أذن، ومن صف جالسين إلى صف، وعندما بلغ المقاعد الأخيرة في مدخل السرادق علق أحدهم متأسفا:" لطالما قلت إن تاريخنا بحاجة إلى إعادة كتابة"! من ناحيته أكد الصحفي لمن كانوا يتجمعون وينفضون من حوله أن الكاتب أوصى بتراث عبد العال ورجاه بعينين دامعتين:" اهتموا بعبد العال.. حرام أن يضيع تراثه". لم

ينقض يومان إلا وكان الناقد الذي لام جاره بقوله: " عبد العال يا رجل!" قد بادر إلى نشر مقال ألقى فيه الضوء على ظروف الأدباء الرواد ونوَّه بعبد العال قائلا إنه: " يحتاج مقالا مستقلا ليس هذا أوانه". وراحت تتسع دوائر الاهتمام بعبد العال وبحياته وسر اختفائه طوال تلك السنين. في تلك الأثناء اكتشف أحد هواة حفظ المجلات القديمة ومراسل بريد قراء مجموعة من المقالات والقصص ورواية لم يكتمل نشرها بتوقيع من حرفين"ع . ش"، وأكد لإحدى الصحف أن تلك الأعمال كلها بقلم عبد العال، ولم يفته في تلك الأثناء أن يعرف بنفسه بصفته شاعرا له سبعة عشر ديوانا ستصدر كلها قريبا. ناقد من العيار الثقيل كتب مقالا بعنوان " راهب الفكر وجدلية الثقافة" تناول فيه أثر العزلة والوحدة في إبداع عبد العال. كاتب آخر طرح سؤالا مهما في مقاله الأسبوعي: " هل أحرق شعبان أفضل أعماله في نوبة يأس؟". وكان مقالا مؤثرا بالفعل. خلال ذلك عثر الأرشيفجي على صورة قديمة تضم الأديب الراحل وبعض أصدقائه تعرف فيها على وجوه الجميع ما عدا شخصا واحدا أطل بوجه حزين، وأكد أن الحزين المغموم هو عبد العال الذي حالت عزة نفسه بينه وبين الشهرة. وما لبث البعض أن قام بتكبير الصورة وعلقها بين صور كبار الأدباء في قاعات الثقافة. فى نهاية المطاف كان لابد من احتفال بعبد العال وأعماله أقيم بالفعل تحت شعار" أمسية في محبة شعبان"، ثم استجابت الدولة لنداء ملح بتكريم عبد العال بجائزة تقديرية، وعلى الفور اكتشف شاعر من إحدى قرى الجنوب أن عبد العال خاله بلا جدال، ودلل على ذلك بخطابات وبصورة طفل يلهو مع ماعز قرب ساقية. وحصل الشاعر الجنوبي على درع الجائزة في حفل مهيب نيابة عن المرحوم خاله، وشكر الحضور بنبرة تأثر و" شيك" الجائزة المالية يرتعش فى يده. فى خضم الأضواء نسى الجميع صاحب الفضل فى اكتشاف شعبان، أي الكاتب العجوز الذي أدلى بآخر حوار صحفي قبل موته بساعتين ولم يكن ليتصور أن خبر وفاته المحزن قد يغدو مفرحا! ولا أن غلطة لسان قد تخلق كاتبا كبيرا! ولا أن الجميع سيوليه ظهره ويمشي وراء شعبان!

***

الـشـــاهـــد

الشارع ساكن في الرابعة فجرا. شبابيك البيوت مغلقة تتأرجح على حبالها الملابس.هبات هواء خفيفة على أطراف "جونلتها" وهي تسير وحدها على الرصيف. اضطرتها عملية طارئة إلي البقاء في المستشفى حتى هذا الوقت. اتصلت بأمها وقالت لها" تناولي أنتِ العشاء ياماما. سأتأخر". تجاوزت مغسلة"الأمراء" ثم صيدلية"النجدة"، اقتربت من "الخرابة" التي كانت عمارة هدمت وبقيت مكانها أرض مهجورة من الأنقاض والأسياخ وأكوام الأتربة وبرك مياه. واصلت سيرها وهي تضغط على حقيبة يدها تحت إبطها. القمر في ظهرها وظلها أمامها يسبقها على الرصيف. فجأة شق الهواء الساكن من خلفها صوت وثبةٍ. قبل أن تلحق وتستدير كان الرجل قد مد ذراعه وطوق عنقها. كادت حنجرتها أن تتحطم من قبض الذراع المتوتر. سقطت حقيبة يدها. شهقت بقوة. سد فمها بيده بإحكام. تحجرت في موضعها. علا بركبته وغرزها بين فخذيها من الخلف بحركة عنيفة مؤلمة. راح يدفعها وهو يلهث ناحية الخرابة. ترست بكعبي قدميها في الأرض. أخذ يرفعها بركبته لأعلى رفعات متتالية يزحزحها عن الرصيف إلى داخل الخرابة. أخذت تلكم جنبه لكمات منهارة. صرخت فلم تصدر عنها سوى نفخة هواء بلا صوت. بدأت دموع الهزيمة تسيل حين وجدت نفسها داخل الخرابة. أدارها من كتفيها إلي ناحيته. حدق بها بنظرة محمومة ويده على عنقها. شهقت تلتمس دفقة هواء. لطمها بقوة. التفتت إلى الشارع. لمحت رجلا يعبر بهدوء وهو مطرق الرأس. صاحت بصوت مختنق باللهفة:"الحقوني". توقف الرجل مكانه. أدار عنقه يستكشف من أين انبعث الصوت. لبث لحظة واقفا ثم استأنف طريقه. فتحت فمها نصف فتحة لتصرخ من جديد فلطمها بصلابة أشد وجذبها من شعرها إلى أسفل فانكسرت على خصرها نحو الأرض، وقبل أن تسقط تماما أحست بزلطة صغيرة تنزلق من تحت كعب حذائها. طرحها أرضًا وحط بركبته على صدرها خانقا إياها بكلتا يديه. دفعته بساقيها ولكمته في كتفيه، وسمعها يتصيد صدى الخطوات في الشارع، ثم شعرت أن روحها تفارقها من رأسها مثل منديل ناعم يستلونه، ولم تدر بشيء بعد ذلك.

جلست في قسم الشرطة تنظر من خلال دموعها إلى أظافرها المهشمة. قالت للضابط إنها لا تتذكر سوى أن الذي اغتصبها كان ضخم الرأس. استدركت وهي تتوقف بين كل كلمة وأخرى:" شخص ما عبر الشارع وأنا أصرخ. توقف قرب الخرابة لحظات، ربما رأى الرجل وحفظ ملامحه. أطرقت برأسها : " لكنه لم يحرك

ساكنا وواصل طريقه". رجّحت الشرطة أن ذلك الشاهد من سكان الشارع فبدأت تحرياتها عنه هناك لعله يدلي بما يفيد التحقيق.

بسؤال بواب العمارة المواجهة للخرابة أقسم بحرارة أنه رجل مسالم لا علاقة له بأي شيء، لكنه سيحكي بالدقة كل ما يعرفه. قال إنه كان يغسل السلالم فجر الأمس حين فوجئ بالصبي الذي يبيع ربطات الخبز يدخل عليه مهرولا ويخبره وهو يلهث أن شيئا ما يحدث فى الخرابة. تنهد البواب:" نعم. قال "شيء ما يحدث". لكني رجل مسالم فنصحت الولد ألا يزج بنا فى مشاكل ونحن أناس على قد حالنا، فانصرف الولد وهو يبرطم وعدت إلى غسيل السلالم. لا ياسيدي لم أنس شيئا. حكيت كل ما حدث بدقة. بسؤال صاحب محل تنجيد "سلامة" قال:" بالأمس؟ بالأمس كنت سهرانا فى المحل لإنهاء شغل مطلوب على السريع. الشغل؟ كنبتان ومقعدان لعروس عقبى لأولادكم. قرب الفجر سمعت صيحة ظننت أنها صراخ قطة لأن بعض المراهقين يهبطون فى الفجر يدخنون ويتلهون بصب الجاز على القطط وإشعال النار فيها، لكن حين استعدت الصوت أدركت أنها استغاثة بني آدم. ألقيت ما بيدي وهرولت إلى الشارع. توقفت أمام الخرابة. هي المكان الوحيد الذي يلجأ إليه الحشاشون والبلطجية. لبثت دقيقة واقفًا. لم أتقدم خطوة ولم أدخل لأتبين الأمر. الصراحة المجرمون الآن في كل مكان. ماذا إن أقحمت نفسي وتعرضت لطعنة سكين؟. عدت أدراجي إلى المحل. لا. لم أسمع الصوت مرة أخرى". وأضاف الرجل متعجبا كأنما من نفسه:" لكن، ألم يكن بوسعي أن أصيح وأدعو الآخرين لنجدتها ؟!". دق كفا بكف صائحا:" يا حول الله".

بسؤال مهندس على المعاش فى الطابق الثالث قال إنه كان نائما نوما خفيفا. قرب الفجر سمع صيحة حادة من شباك حجرة نومه. تقلب على سريره مدة ثم نهض بعد أن طار النوم من عينيه. نظر من وراء مصراعي الشباك فشاهد فتاة جالسة على حافة الرصيف وقد وسعت ما بين قدميها. قال:" كانت مطرقة صامتة هامدة. لا. لم يكن بالشارع آخرون. ظلت ساهمة مدة وأخيرا نهضت، وما إن بدأت تخطو حتى ترنحت. فردت ذراعيها فى الهواء وتوازنت. مشت ببطء فى اتجاه الصيدلية. لا. مشت صامتة. فكرت بالطبع أن أهبط أو أنادي عليها من الشباك أستفسر إن كانت بحاجة إلى شيء. بالطبع. لكن أنت تفهم يا سيدي أنه إذا انشغل الإنسان بكل ما حوله فلن يجد دقيقة لنفسه. لا. عدت إلى نومي ولم أسمع عن الاغتصاب إلا منكم الآن فقط".

لم تساعد الشرطة كثيرا إفادة الصيدلي ذي النظارة المذهبة التي جاء فيها أنه كان " يتجه من محطة الأتوبيس إلى صيدليته حين خيل إليه أنه لمح كفًا تلوح من

وراء عمود خرساني فى الخرابة، لكنه حسب أن مايراه توهم مَن لم يشبع نوما، وواصل سيره. بعد حوالي الساعة فتحت باب الصيدلية شابة شعرها مهوش والبلوزة ممزقة عند كتفيها. وقفت أمامه من غير أن تنظر إليه. طلبت بصوت خافت قطنا وشاشا ومطهرا. جمعت كل ذلك بين كفيها المرتجفتين واستدارت منصرفة من دون أن تسدد ثمن ما أخذته. استطرد الصيدلي: " لكني لم أطالبها بالنقود. نعم أستطيع التعرف إلى وجه الفتاة لكن المغتصب؟ لا أظن. الحق أن الحيرة استولت عليَّ، أكان ينبغي القيام بشيء ما؟ لكن أي شيء؟ أنا صاحب صيدلية لا أستطيع ترك المكان". لم تكن الشرطة معنية بالظروف التي عاقت سكان الشارع عن التدخل، فقد كان همها الرئيسي العثور على شاهد يحتمل أنه رأى المغتصب. فى شهادة مدام وفاء مديرة حضانة الأطفال قالت: " كنت أسير متجهة من أول الشارع نحو الحضانة. نعم. فى الفجر تقريبا. رأيت أمامي شابة قادمة من منتصف الطريق. لفت نظري أنها تمشي بتثاقل، وهي تباعد بين ساقيها وكفها على بطنها. حدثت نفسي بأنها لابد أن تكون امرأة سيئة الحظ مثلنا نحن النساء جميعا، ضربها زوجها وطردها من البيت في هذا الوقت المبكر، لكني لم أتخيل قط أنها اغتُصبت. اسمح لي أن أدقق فى الصورة. نعم. هي. كيف فاتني أن تكون قد اغتصبت وأنا امرأة مثلها؟ كنت على بعد خطوات منها ولم أسألها ما بها. شيء فظيع. فظيع".

فى العمارات الأخرى كان معظم السكان يغطون فى النوم وقت الجريمة، لكن أحدهم قال إنه مر فى الشارع فى ذلك الوقت لكنه كان مسرعا، وإنه سمع صرخة أو ما يشبه صياح نزاع بين رجل وامرأة. توقف يتطلع حوله لكن لم ير شيئا. وعندما سئل:" متى كان ذلك تحديدا؟". أجاب:" يوم الثلاثاء الماضي". قيل له: " نحن نتكلم عن حادثة وقعت بالأمس". قال:" لا أدري. أنا أتحدث عن الثلاثاء الماضي. الظاهر أن مثل هذه الحوادث صارت تتكرر كثيرا. نحن فى منطقة شعبية لكن سكان المنطقة المتاخمة أناس كبار، ضباط وقضاة ورجال أعمال، والناس عندنا إذا ما وقع حادث يخافون أن يكون للكبار يد فيه ومن ثم لا يقحمون أنفسهم". بسؤال بائع الصحف الذي يضع فرشة جرائد قرب المدرسة الابتدائية قال إنه كان فى انتظار وصول السيارة التي توزع الجرائد، كان جالسا يطالع أخبار الحوادث لأنه على حد قوله مدمن قراءة صحف، وقال: " نعم. سمعت صرخة حادة. بدت حقيقية، لكني لم أكن واثقا، لأني من كثرة ما أطالع أخبار الجرائم لم أعد أميز بين الصيحات الحقيقية و أصوات الأطفال المختطفين التي تنبعث في خيالي، أو صيحات العجائز اللواتي يقتلن من أجل جنيهات قليلة. لا ياسيدي. لم أترك مكاني. كنت جالسا هنا طول الوقت". بعد أسبوع من التحريات أيقنت الشرطة أنه ما عدا عجوزين

وشخصا مقعدا كان معظم قاطني الشارع شهودًا على ما جرى بطريقة أو بأخرى. لكن الشرطة عجزت عن العثور على ذلك الشاهد الذي عبر فى تلك الليلة، فأغلق التحقيق في القضية. خلال ذلك كانت الفتاة التي اغتصبت في الخرابة تتردد على قسم الشرطة تستفسر إن كان قد جد جديد إلى أن قيل لها فى المرة الأخيرة إن القضية قُيدت ضد مجهول، فخرجت من مبنى القسم إلى الشارع، ولبثت واقفة متحيرة تنقل بصرها بين السيارات والناس. أحست بالعجز، فلم يكن بوسعها أن توضح لأحد أن كل ما يهمها عند العثور على الشاهد هو أن تضع عينيها فى عينيه، تتأمله، لترى الإنسان الذي لم يحرك ساكنا.



قـــــدمـــان

تعرفت إلى حكاية هذا الرجل عن طريق حفيده. رجل لم يقم بشيء خاص أو معروف سوى أنه ترجم نفسه من اللغة العربية إلى إحدى لغات الشمال البارد.فعل ذلك طويلا، يوميا، على مدى سنوات منذ أن هاجر إلى الخارج وعاش وتزوج وأنجب هناك، ولم يعد خلال تلك السنوات الطويلة إلى موطنه ولو فى زيارة عابرة. لم تكن ثمت جالية كبيرة من موطنه أو حتى جالية عربية، فلم ينطق لغة بلاده، وبدلًا من "أحبك" كان يقول لقرينته جملة أخرى بنفس المعنى لكن بلغة أخرى. وبدلاً من "مرحباً" كان يلفظ كلمة أخرى حين يلتقي بجاره الأجنبي كل صباح في المصعد. ترجم الرجل المعانى إلا أن شوقًا قاتًلا توحش بداخله للإنصات إلى لغته الأصلية، إلي طبولها ورنينها وسينها وصادها وعينها وغينها. كان يتوق للاستماع إلى لغته ولم يكن هناك من يتحدث إليه أو من ينطقها لأجله، فكان عليه أن يقتطع لغته من نفسه ليطعم بها نفسه ويصبح القبلة والفم والصوت والأذن!

صار يخرج كل ليلة إلى الغابات الشاسعة الباردة المترامية خلف بيته. يمشي وحيدا فى حذاء شتوي برقبة طويلة. يخوض فى الثلوج وفي الريح صارخا فى الليل بكلماته العربية فيرجع إليه الصدى بما تبقى منها. ينصت إلى الصدى بعطش ونهم ثم يبعث بتحياته بأعلى صوته إلى إخوته، فيعود الصدى ببقايا أسمائهم. تنتعش في نفسه ذكرى جولاته القديمة في أنحاء مدينته فيهتف بأسماء الأصدقاء، وحينما يوغل الليل ويشتد البرد يقفل راجعا إلى بيته منهكا مرتعشا، يعلق معطفه على المشجب وينثر من عليه ندى الليل، ويبدأ ثانية في ترجمة نفسه وهو يركب الترام، وهو يشتري الصحف، وداخل المصعد .

ليلة بعد ليلة وعامًا بعد عام، ترجم الرجل كريات دمه البيضاء والحمراء إلى أخرى من نوع آخر، وعندما قارب الخمسين من عمره كانت ملامح وجهه قد انمحت، ولم يبق منه سوى ساقين وقدمين تخوضان في الصقيع كل ليلة، تندفعان إلي الأمام تفتشان فى ظلال الغابات الشاسعة وفي الندى والصمت عن روح عزيزة ضائعة.

***

عــلى ربـــــوة

فجأة فهمتُ. الآن. فهمت. كأن سيفا باغتني وشقني نصفين ورماني إلى الذهول. فهمتُ بعدما انحنيتُ لأفتح باب السيارة. تطلعتُ وأنا واقف فى الشارع إلى جانب وجه ابنتي. كانت يداها على المقود تنظر عبر الزجاج الأمامي سارحة بخواطرها. أفتحُ الباب. أجلسُ بجوارها. أتزحزح ناحيتها. أقبض بكفي على ساقي المدلاة على الإسفلت، أرفعها إلى داخل صالون السيارة ببطء. أستدير بوجهي إلى ابنتي. لمحت فى عينيها ضجرًا مكتوما. حينئذ فهمتُ. فجأة فهمتُ .أدرتُ وجهي وأرسلتُ بصري عبر الزجاج. ساد الصمت في الصالون إلى أن قلتُ لها:

-هيا بنا. إلى بيت العائلة.

كانت تعرف إلى أين سنتجه فلم تنتبه أو لم تنصت لما قلته. الآن فهمتُ. كانت تتحمل وجودي. هكذا كنتُ أنا أتحمل وجود أمي وهي فى السبعين وأنا شاب فى الثلاثين ممتلئ بالحياة. كنتُ أتابع أمي وهي تفتح باب سيارتي بتثاقل لتجلس. تتزحزح ناحيتي. تتنهد ثم ترفع ساقها على مهل وهي تكز على ضروسها. أكان لابد من انقضاء ثلاثين عاما لأفهم أن أمي كانت بنظراتها تطلب مِني الحنان؟ تطلبه بشرودها بعد أن تفتح نافذة السيارة وترسل بصرها إلى الأشجار والبيوت الراكضة؟ تطلبه بهزة رأسها مع غنوة قديمة؟ وبالرقة التي تستسلم بها للتعب؟ بسرحانها إلى بدايات حياتها، تتساءل كيف مضى العمر سريعا؟ أين كان ينبغي لها أن تتفادى ضياعا أومتاهة؟ فى السبعين اكتملت صورة حياتها تحت عينيها مثل قطعة قماش مفرودة، لكن لم يبق زمن تطرز عليه وردة، ولم يعد بوسعها أن تبدل خيطا في الرسم القديم. حينذاك لم أفهم. كنتُ أقابل كل ذلك بنظرة ضجرة، أما هي فلم تفضِ بشيء ولم تنبس بحرف. احتاج الأمر كل تلك السنوات لأدرك الآن، كل ما كانت تحسه وتكتمه. لماذا يأتي الإدراك متأخرا بعدما يصبح القلب منهكا وبعدما تفقد الشفتان حرارة التقبيل؟

راحت ابنتى تقطع بالسيارة شوارع المدينة متجهة إلى بيت العائلة. صمت ومطر خفيف يتساقط على الزجاج الأمامي في جو تشبَّع بالغروب. تتلفت ابنتي بعينيها يمينا ويسارا، وتمرق من بين السيارات بسرعة. أشعر بالتوتر والخوف.

- من فضلك قودي ببطء شوية.

ترد متذمرة: هذه سرعة معقولة. لا تخف.

حينذاك لم تبثني أمي شيئا من تعبها. تفادت حتى الإيماء إلى ذلك ولو بتنهيدة. لعلها كانت تقول لنفسها:" سيحل يوم يفهم فيه كل شيء فلماذا أتعجله؟". أنا أيضا لا أفضي بشيء لابنتي. أقول لنفسي ستحل لحظة تدرك فيها معنى نظرتي وعمق المحبة التي بقوة الدم والإيلام والحنان.

نقطع ميدان الحلمية. ندخل إلى الشارع الرئيسي المؤدي إلي بيت العائلة القديم حيث نشأنا. بعد وفاة أمي لم تطاوعنا نفوسنا على بيع الشقة. اتفقنا أن نلتقي فيها أيام الجمعة. نجلس أنا وأختاي الاثنتان فى الصالة. نتغدى، نشرب الشاي، تنهض "وئام" الكبرى تتجول بين الحجرات، تتفقد ذكرياتها فى الهواء الساكن كأنما تطمئن إلى أن الأطياف مازالت في أماكنها. تتجه نوال إلى الحجرة التي كانت للبنات يوما ما. تتمطى هناك على سرير طفولتها. تستعيد الزمن الضائع. بعد وقت ننصرف إلى بيوتنا. مع تقدمنا فى السن واتساع المسافات تباعدت اللقاءات فأعتمت الشقة وكسا التراب حواف قطع الأثاث وأطراف الستائر فقررنا بعد ربع قرن من وفاة أمي أن نبيع الشقة. اليوم نلتقي للمرة الأخيرة لنتقاسم قطع الأثاث والصور والأواني ونودع المكان بنظرة قبل تسليم المفتاح. لم أكن مستريحا لكل ذلك، فقد بدا لي أن فى ذلك التقاسم تمزيقا لمخلوقات الذكريات. قلت لوئام:"لا أريد شيئا"، لكنها أصرت:"وأنا لا أود أن أحصل على كل شيء وحدي. تعالوا نلتقي، منها نتذكر أمنا، ومنها نفرز الموجود".

نقترب من الشارع الذي نمونا تحت أشجاره ولعبنا بين رصيفيه. هنا أعرف وأنا مغمض العينين كل محل بقالة وصاحبه الأصلي وأولاده. أعرف تاريخ كل كشك سجائر وصحف. اسم بواب كل عمارة، وبنات كل أسرة. نتوقف. تركن ابنتي السيارة. تخرج. تمسك بذراعي وأنا أصعد السلالم ببطء. هكذا كنت أقبض على مرفق أمي وهي ترفع قدمها إلى درجات السلم لاهثة وتقول لي " بالراحة شوية". لكني لم أفهم. بلغنا الطابق الثالث ومن أول الطرقة الممتدة رأيت باب الشقة مفتوحا، وتناهت إلي من الصالة أصوات أختي الاثنتين. دخلت مع ابنتي. كانت وئام الكبيرة جالسة على الأريكة أمام التلفزيون تمسح أنفها بطرف فوطة صغيرة ثم كورتها وحشرتها بجوارها، ونوال بجوارها على طرف الأريكة تفتح البخت بأوراق لعب. ما إن جلسنا حتى أشارت وئام بإصبعها إلى "شوفينرة" ضخمة وضحكت قائلة : "هنا وضعنا أول راديو كبير اشترته أمي وغطيناه بقماشة من شدة فرحتنا به". ضحكت نوال ضحكة مسحوبة إلى الماضي. تبادلنا النظرات في صمت. نشعر بوجود أمي، بهفهفة طرف جلبابها المنزلي، بخطواتها من دون صوت، بنظرات عينيها. تسرح أبصارنا فى الجدران التي تشقق طلاؤها وبهتْ. قالت نوال لابنتي: "ما رأيك في أن تقومي وتعدي قهوة لعماتك ووالدك الغالي؟". نهضت ابنتي إلى المطبخ. عادت بعد قليل بفناجين القهوة على صينية وجلست تتحدث فى المحمول بصوت خافت. قالت نوال: "أنا جمعت كل الأطباق والأكواب فى صناديق كرتون". نبهتنا وئام بنبرة استئذان:"إذا لم يعترض أحد فسآخذ غرفة النوم التي كانت ماما تنام فيها". طلبت المنضدة التي تنطبق إلى نصفين والتي كانت أمنا تجلس إليها

كل صباح تحتسي الشاي. تمتمت نوال: " أنا وضعت كل الصور والخطابات القديمة فى صندوق واحد. سأحتفظ بها عندي".

تذكرتُ حين ذهبتُ مع أمي وأنا صبي لزيارة خالي عبد العزيز المريض بالسل. كان يوما حارا ونحن نسير على طريق مترب مهجور تقريبا. كنت أسير وأضرب الحصى بطرف حذائي وأمي تتقدمني بخطوات. فجأة رأيتُ عربة"آيس كريم" صغيرة مرسوم علي جنبها قط ملون كبير. تمهلتُ عندها. سمعت أمي صدى خطواتي تتراخى، فالتفتت نحوي ولمحت فى عيني نظرة اشتهاء آيس كريم. لبثت لحظة فى مكانها. قلت لنفسي النقود قليلة، لكنها هزت رأسها وقصدت العربة لتشتري آيس كريم. بعد نحو أربعين عاما كنتُ مع ابنتي فى محل وضعت على أرفف منه دُمًى خشبية بأزياء زاهية. تجمدت ابنتي وكانت فى السادسة أمام دمية. لبثتُ لحظة مأخوذا بعينيها المفتوحتين على الدمية. لم يكن معي من النقود إلا ما يكفي مصاريف البيت ليومين. اتجهتُ إلى الدمية. رفعتها وأسرعت الخطو للأمام، فهرولت ابنتي ورائي تهتف:"لا يا بابا.. مش عاوزاها.. دي غالية". دفعت ثمنها بآخر مليم معي. خرجنا من باب المحل. وابنتي تصيح بصوت خافت:" غالية يابابا". توقفت تحت عمود نور واستدرت إليها وناولتها الدمية. أمسكتها بيديها ثم أنزلتها إلى مستوى ركبتيها وطوقت عنقي وفي عينيها سعادة "لكن جميلة قوي يابابا"!

أنهينا كل شيء يخص شقة أمي. لم آخذ سوى المنضدة الصغيرة التي تطوى نصفين. وقفنا نلقي نظرة أخيرة على الشقة، خامرنا شعور ونحن نتأهب للخروج منها بأننا قمنا بتشتيت الذكريات التي جمعتنا وأننا الآن فقط نفترق فى دروب مختلفة. وضعت نوال صندوق الخطابات والصور تحت إبطها، وأغلقت وئام الباب، ثم قالت للحارس إن سيارة ستأتي غدا لنقل الأثاث، ورفعت مفتاح الشقة بين إصبعيها لتسلمه إياه، وفجأة ارتجفت كفها مرتدة بالمفتاح واستدارت تبكي فى صدر نوال. ربتت نوال على كتفها وطوقتها بذراعها. خرجنا من باب العمارة إلى الشارع وخيل إليَّ أن أمي تطوف الآن بين الحجرات الصامتة تقسم روحها إلى أجزاء صغيرة توزعها على قطع الأُثاث ليبقى منها شيء فى كل ناحية. سلمنا وودعنا بعضنا على الرصيف.

ركبتُ مع ابنتي سيارتها وانطلقنا على الطريق. كانت الشوارع هذه المرة خالية والمرور سهلا. وصلنا إلى مسكني. فتحتُ باب السيارة ببطء. قالت:"إلى اللقاء يابابا". أجبتها:"إلى اللقاء يا حبيبة بابا". أنزلتُ طرف قدمي من السيارة فلامست الإسفلت، لكني لم أشعر بصلابته المألوفة بل بطراوة ندية. نظرتُ أمامي فرأيت

مطلع ربوة عالية، وثلاثتنا، أنا وأمي وابنتي نرتقي الربوة. أذرعنا متشابكة، ندوس أطراف العشب اللين صاعدين بخفة. ثلاثتنا معًا وكل منا فى العشرين من عمره. بلغنا رأس الربوة وتوقفنا نلتقط أنفاسنا. من العلو الشاهق انحدرنا بأبصارنا إلى السفح، ولمحنا تحتنا بعيدا ألماسة الزمن المتوهجة وقد تكسرت إلى أيام ولحظات تتقد وتنطفئ. هبطت أمي ببصرها إلى ماضيها. تطلعت أنا إلى مستقبلي وإلي ماضيها. التفتت ابنتي إلى حاضرها وما مضى من سنواتي. نقف وكل منا في العشرين، نديم النظر إلى النقاط الصغيرة التي تقاطعنا فيها والنقاط التي سنتقاطع فيها. أدركتُ أننا سنبقى هنا إلى الأبد ففردتُ المنضدة التي كانت تحت إبطي وجلسنا حولها نتطلع إلى بعضنا البعض مثل موجات فتية تذوب أوائلها فى حوافها، نتبادل النظرات بسعادة، ونحن نعلم أننا الآن سنبقى فى فرح وهناءة الحياة الشابة، وكالهواء والنور لن نشيخ أبدا.

***

فـرحة صغيـرة

يرتقي الجد النحيف الطويل الدرج وشعره الأبيض الخفيف يتطاير على جانبي رأسه الأصلع. فى سن السبعين يصبح صعود أربعة طوابق أمرا مرهقا. يفقد توازنه لحظة، ويتأرجح بين سور السلم والجدار فيستند بيده اليمنى إلى السور ويحكم قبضة يده الأخرى على علبة "آيس كريم". يتمهل قليلا. يلهث. تهون عليه المشقة حين يتخيل وجه حفيده حاتم ناظرا متهللا إلى"آيس كريم". توفيت زوجته بعد خروجه إلى المعاش فقضى عشر سنوات وحده إلى أن طلقت ابنته وأقامت معه هي وطفلها حاتم. بعد عامين من بقائهما معه لم يعد يتصور حياته من دون ذلك الصبي "القزعة"، بسنواته الخمس، وركضه بين الحجرات، بينما يلاحقه الجد ببصره فيشعر بأنه كان قبل ظهور حاتم مثل شجرة جف ماؤها وفجأة امتد منها فرع أخضر.

أدار المفتاح فى باب الشقة. الصمت يعم المكان. أيكون حاتم نائما؟ حين يكون نائما يتجه الجد إلى حجرته على أطراف أصابعه. يجلس على حافة السرير. يوقظه. يغمغم :"قم. جدك جاءك بآيس كريم. قم". يعتدل الولد جالسا على السرير فورا كأنما لم يكن نائما. يمد ذراعيه إلى جده ويضمه إلى صدره بقوة. يغرز أصابعه فى رقبة الجد متشبثا بها ويقبّله إلى أن يتألم جده من العناق. سنرى إن كان نائما أم لا. سار إلى حجرة الصغير. رأى السرير خاليا. عاد إلى الصالة. وقف فى منتصفها يدير رقبته في مختلف الاتجاهات ويتجنب النظر ناحية منضدة الطعام، يسأل بصوت مرتفع:" فين حاتم؟ يا تُرى فين حاتم؟". حاتم كعادته مختبئ تحت فراغ المنضدة، صامتا. عيناه مفتوحتان إلى آخرهما. يعيد الجد استفساره " ياترى فين حاتم؟". يجيبه صوت رفيع "حاتم مش هنا". يقولها من أسفل المنضدة ثم يخرج رقبته ليستوثق من أنه غير مرئي:"أنت شايفني يا جدو؟" يقول الجد متظاهرا بالحيرة :" لا. لا. أنت فين ياترى؟". يشعر الجد بفرحة حاتم بالاختباء وبتفتيش الجد عنه وبأنه لا يستطيع العثور عليه! تمتم الجد:"خسارة أن حاتما ليس هنا لأن جده جاءه بآيس كريم". فورا يندفع الولد من تحت المنضدة مخاطرا بارتطام رأسه بحافتها. يهجم على"آيس كريم" بيديه الاثنتين. ينتزع العلبة ويعافر يفتح غطاءها. يرتمي الجد على المقعد المجاور للشباك. يسرح فى حياته التي تبدو له الآن لحظة قصيرة. يستغرب أحداثها وأناسها وأزمنتها كأنما هي حياة شخص آخر. يتناهى إليه من الشارع نداء ممطوط "أي حاجة قديمة للبيع.. روبابيكيا.. بيكيا". تذكر المجلات والصحف المكدسة على رف فى الطرقة. نهض. فتح الشباك. دلى نصف جسمه إلى الخارج:"يا روبابيكيا. بيكيا". يبرز من وراء جدار العمارة المقابلة رجل بجلباب، بجواره صبي فى العاشرة يقود حمارا يجر عربة يد. يرفع الرجل رأسه لأعلى ليحدد من أين جاء النداء. يلمح رأس الجد في الشباك. تظهرعلى وجهه ابتسامة خفيفة. يصيح:"حالا". هتف الجد:"الطابق الرابع. الرابع". يقول الرجل:"أيوه.الرابع. أيوه". بعد قليل فتح الجد باب الشقة ورأى الرجل واقفا مبتسما بأدب. لم يفهم سبب

الأدب الواضح في ابتسامة الرجل." تفضل". طأطأ الرجل رأسه ودخل والصبي من خلفه. قاده الجد إلى الرف الذي تكدست فوقه الأوراق القديمة. نظر الرجل إلى كومة الصحف يزن قدرها كأنما مجوهرات. سأل:" هم دول؟". أجاب الجد: "أيوه". استفسر:" وحضرتك عاوز فيهم قد إيه؟". قال الجد:" أنت عاوز تدفع كم؟ بس خلي بالك الكمية كبيرة". هز الرجل رأسه:" خمسة جنيه". فى هذه اللحظة برز حاتم قادما من الطرقة إلى الصالة. توقف وهو يرفع بنطلوناً قصيراً لأعلى وسطه ويهزه لأعلى وأسفل. شكا لجده:"ياجدو.. البنطلون مش عاوز يلبسني"، ثم نظر إلى الصبي الآخر وسأله:"أنت ما عندكش بنطلون؟". ابتسم الصبي ولم يجب. اندفع حاتم يجري إلى الداخل. التفت الجد إلى الرجل: "خمسة جنيه إيه بس؟! الورق غال دلوقت. قل كلمة حلوة لأجل نخلص البيعة". قال الرجل متأسيا:" والله خمسة جنيه كويس يابيه.الورق راحت عليه،اللي شغال دلوقت الأكياس البلاستيك". قال الجد:"لاء. الورق بياخدوه يفرموه للمطابع. قلت إيه؟". قال الرجل كأنه يعاني من ألم شديد:"طيب سبعة جنيه، ده عشان خاطر حضرتك بس". صاح الجد:"خليها عشرة جنيه ونخلص".قال الرجل بأسف:" عشرة كتير والله". لبث الجد لحظة صامتا يمصمص شفتيه ويبدي استياءه فيما هو يتصور كيف سيتهلل وجه الرجل الصعيدي حين يقول له إنه سيعطيه الورق كله لا بخمسة جنيه ولا بعشرة لكن مجانا. وإنه لن يأخذ منه مليما واحدا! ستلمع عينا الرجل المسكين من فرحته بالمفاجأة، وسيشعر الجد أيضا بفرحة صغيرة لأنه أسعد الرجل. هذه هي اللحظة التي يبلغ فيها المشهد ذروته. ابتسم الجد. ربت على كتف الرجل:"طيب يا الله يا عم.. خدهم ببلاش". وقهقه بقوة يسأله:" مبسوط بقى؟!". حدق بالرجل يتلمس في وجهه رد الفعل، فوجده يدور بعينيه مدهوشا بسرور:"معقول يا بيه؟! ربنا يخليك لنا". وانحنى الرجل يطوق كومة الورق بذراعيه ويرفعها إلى أعلى. ابتسم الصبي ابن الرجل وأطلق ضحكة بصوته الرفيع:"ما احنا عارفين إن حضرتك كنت ح تقول خدوهم ببلاش". هبط الجد ببصره إلى الصبي مستغربا: "عارفين إزاي يعني؟". قهقه الصبي:" يا بيه احنا جئنا لك قبل كده كثير وكل مرة تطلب منا مبلغ كبير وبعدين تعطينا الورق ببلاش. هيء. هيء". انطفأت البهجة في وجه الجد، وكز على ضروسه محدثا نفسه:"الله ؟ يعني الرجل تظاهر بالفرح حين قلت له سأعطيك الورق مجانا وهو يعلم مسبقا أنه سيحصل عليه بدون مقابل؟!". صاح في الرجل بغضب:"أنت فعلا جئتني قبل كده؟". ارتبك الرجل ونظر بسخط إلى ابنه:"أيوه جينا لحضرتك قبل كده". هتف الجد:"مش أول مرة يعني؟". قال الرجل مطأطئا رأسه:" لا يا بيه مش أول مرة". قال الجد لنفسه: "اللئيم كان يسايرني كأني طفل صغير!". تحرك الرجل بحمولته على كتفه نحو باب الشقة قائلا بخفوت: "سلام عليكم"، وما إن خرج إلى السلالم حتى صفع ابنه على قفاه:" بوختها مع الرجل الطيب. بتتكلم ليه ياحمار؟". زام الصبي:"ما هو كل مرة يعمل الحدوته دي". زغده الرجل يدفعه على السلالم قائلا:" قدامي يا ابن الماسخة. الراجل مبسوط كده. أنت مال أمك؟". أغلق الجد باب الشقة بصفعة قوية. ظل واقفا مكانه لحظة يصفي روحه من عكارة ما جرى. قال لنفسه:"والله لأجعله

يدفع ثمن الورق مضاعفا المرة القادمة". مط شفته السفلى باكتئاب: "بس يارب أتذكر وجهه". استدار متجها إلى المطبخ فجاءه صوت حاتم ورأسه بارز من تحت المنضدة:" أنا مش هنا يا جدو. شوف أنا مستخبى فين. بس ما تلقانيش بسرعة". توقف الجد مكانه. عليه الآن أن يذرع الصالة ذهابا وإيابا، أن يروح ويجيء مدة طويلة، أن يضرب كفا بكف متعجبا"ياترى حاتم فين؟".

***

الــغــنــيــمــة

ما إن قبض على الغنيمة بيده حتى فر مندفعا بها إلى الأمام. اكتسح كالريح كل ما وقف في طريقه. ركض خلفه عدد ممن شاهدوه، يتصايحون، يحاولون اللحاق به، يصرخون فيه:" لا تخف. سنتكلم معك لا أكثر. لا تخف". انفلت من الشارع المزدحم إلى الميدان. ارتطم في طريقه بشاب فأوقعه. خبط كتف امرأة بقوة. اصطدم بحافة سيارة، والناس يتضاعفون من خلفه، يطاردونه بصياح كالرعد. جرى كسهم منطلق وهو يتخطف بعينيه ومض الفضول في أعين العابرين أو الجالسين في المقاهي على حواف الأرصفة. واصل العدو بكل قوته. كاد قلبه أن يثب إلي حلقه من الخوف. لا أمل سوى الفرار بأقصى ما يستطيع من قوة وإلا ضاع إلي الأبد. تصبب العرق منه. تقطعت أنفاسه، وهو يحكم قبضته على الغنيمة ويستميت في الحفاظ عليها. ظل يعدو من دون توقف إلى أن خفتت الأصوات خلفه وتباعدت شيئا فشيئا ثم تلاشت. التفت إلى الوراء. لا أحد؛ لقد نجا. راح يلتقط أنفاسه، ويهدأ. بوسعه الآن أن يجني ثمرة تعبه. شاهد حديقة مفتوحة عن يساره. دخل وساقاه ترتعشان. ارتمى على أقرب أريكة. مد ساقيه على الأرض. لبث مدة يستجمع شتات أعصابه. كانت الحديقة فارغة تقريبا ماعدا عجوزين جالسين على أريكة بالقرب منه يغمغمان. اطمأن تماما إلى أن أحدا لا يطارده. فتح كفه حيث ترقد الغنيمة. أحنى رأسه ينظر إليها. دقيقتان كاملتان من الوقت، لم يمسسهما أحد، مغلقتان، له وحده، لن يشاركه فيهما الآخرون، ولن يقطع استمتاعه بهما أحد. دقيقتان كاملتان. استل الثواني من الدقائق، ثانية بعد الأخرى. شرع بهدوء وصفاء يتأمل حياته ويراها ويفكر في ما يود القيام به في هذا العالم.

***

ورد الــجــلــيــد

مازلت أرى" نينا أندريفنا" رغم الزمن الذي انقضى وباعد ما بيننا. أراها ليس كما تخطر الوجوه على الذاكرة من مسافة، بل أبصر وجهها بوضوح وأكاد أحس لفح الانفعال حين كانت تحدق بنا بنظرة ملهوفة لتستشف ما قد يرف فى عيوننا من حزن، فتندفع لعناقنا بأنفاس ساخنة وتمسح على ظهورنا بيد مرتجفة. أرى "نينا أندريفنا" وتعتصرني رغبة حادة أن أعرف ماذا فعلت الدنيا بها؟ أين هي الآن؟ أما زالت على اعتقادها بأن وراء كل ضباب نجمة سعادة ساحرة وأن بوسعنا إذا ما تطلعنا إلى السماء بتركيز أن نراها مشعة؟ أم أن الأيام والأحداث قد أحبطتها وكسرت وردة الإيمان الصافي؟

كنت في العشرين من عمري حين سافرت إلى موسكو لأواصل تعليمي. بعد وصولي بيومين قادني" ميشا"، وهو مترجم شاب يتقن الإنجليزية، ومعي عدد من الطلاب إلى بيت من خمسة طوابق أشبه بفيلّا قديمة فى شارع قرب محطة مترو "بروفسايوزنايا". توقف بنا عند مدخل البيت وقال لنا إن هذا هو مبنى الكلية التحضيرية الذي سنقيم وندرس فيه العام الأول، وأضاف إن مكاتب إدارة الكلية تقع فى الطابق الأول هي والمطعم، أما قاعات الدراسة فتشغل الطابقين الثاني والثالث، والحجرات التي سنسكنها في أعلى طابقين. دخلنا المبنى يتقدمنا "ميشا" صاعدًا درجًا خشبيًّا ونحن خلفه نجر حقائبنا. أرشد كل ثلاثة منا إلى إحدى حجرات السكن ثم وزع علينا قصاصات صغيرة بمواعيد الدروس وأرقام القاعات. دخلت حجرتي وألقيت حقيبتي على السرير. فتحتها. أخرجت ما فيها من ملابس وأزرار وكتب قليلة وصور أخواتي. حينذاك لم أع أنني كنت أخلي حياتي مما كان وأنني أفتحها لعالم آخر.

صباح أول يوم دراسي امتلأت ردهة الطابق بالطلاب وقد خرجوا من حجراتهم يصخبون بمختلف اللغات هابطين إلى قاعات الدرس. وجدت القاعة رقم 23. فتحت بابها بحذر لا أدري لماذا. حجرة متوسطة المساحة بنافذة عريضة فى الجدار، وخمسة طلاب كانوا ما زالوا يزحزحون مقاعدهم ليجلسوا فى وضع مريح خلف طاولات مستديرة في مواجهة سبورة خضراء. تعارفنا باللغة الإنجليزية بغمغمات خاطفة. موبوتو من الكونجو. رأس ضخم وكتفان عريضتان وفم واسع ضاحك، وأربع بنات. عايدة من كوبا، ممتلئة، بعينين مفنجلتين، ترن ضحكتها مثل فلاحة مصرية. ماريا من كوستاريكا، مرتبكة متلعثمة بنظرة متوسلة طول الوقت. وبنتان طيبتان جادتان من فنلندا هما سايما وهيلفي، دائمتا الغمغمة كل في أذن صاحبتها، لم تفترقا طول السنة. بينما نحن نتأمل بعضنا البعض، وكل منا يزن الآخر انفتح الباب ودخلت سيدة تجاوزت الثلاثين. طويلة، نحيفة، بيضاء. وجنتاها بارزتان قليلا. شعرها قصير اختفى طرفاه وراء أذنيها الصغيرتين. وقفت صامتة تشملنا بنظرة مهذبة ثم رن صوتها فى الحجرة مثل أجراس صغيرة تقدم نفسها : " نينا أندريفنا". فتحت حقيبة يدها وأخرجت ورقة صغيرة مطوية، فردتها تحت

بصرها. راحت تنطق أسماءنا وتطابقها على وجه من يلوح لها بيده. قالت شيئا بالروسية لم نفهمه. ابتسمت ومالت على الطاولات تضع أمام كل منا نسخة من كتاب صغير بغلاف مقوى. استدارت ناحية السبورة وتناولت إصبع طباشير. تطلعنا إليها بفضول نفكر بأي لغة ستعلمنا الروسية التي لا نعرف منها حرفا؟ بدأت الدرس وفوجئنا بأنها تعلمنا الروسية بالروسية مباشرة من دون لغة وسيطة. قالت:"دوم"، فتطلعنا إليها بنظرة الغرقى إلى طوق النجاة، فرسمت منزلا على السبورة وأعادت نطق الكلمة"دوم" ثم أدارت قبضة يدها في الهواء عدة دورات تستحثنا على تكرار الكلمة. قالت:"كنيجا" ورسمت كتابا، ثم وقفت بجنبها إلينا ترهف السمع لما نردده بعينين نصف مغمضتين وذراعاها النحيفتان ترفرفان أمامها كأنما تؤكد صحة نطقنا. فجأة أحنت قامتها وحدجت فينا عن قرب تستشف إن كنا فهمنا ما قالته أم لا. حدجت فينا وفى عينيها لهفة على مساعدتنا وعطف على ارتباكنا، وكنا فى أمس الحاجة لذلك التشجيع في الأشهر الأولى من وجودنا فى عالم جديد بأهله ولغته وطقسه. لم يكن السير على جليد زلق لامع فى الشوارع سهلا على وافد غريب مثلي جاء من تحت عين الشمس مباشرة، ولا كان سهلا عليَّ تطوحي كعود قصب فى ريح عاصفة وأنا فى طريقي إلى محلات البقالة، أو انتظاري تحت أسقف محطات الأتوبيس والثلوج البيضاء تطوق قدمي، بينما تتحجر شفتاي ولساني من البرد وأنا أمد بصري فلا أرى سوى ضباب ينساب مثل زفرات وحش مغمور فى عجز وأسى. فى الليل كنت أتقلب من البرد طول الوقت. أشعر بملاءة السرير متصلبة متجلدة تحتي. لا يأخذني النعاس إلا قرب الفجر مع أوائل الدفء فأغرق فى النوم إلى ما بعد موعد الحصة الأولى، ثم أنهض أجر بدني هابطا إلى قاعة الدرس وأنا أشعر بالقرف لتأخري المعيب. أدق على الباب وأدخل. تسألني "نينا أندريفنا" بنبرة قلق واهتمام: " ماذا حدث يا طارق؟ لِمَ لا تحضر الحصص الأولى؟". أخجل من التصريح بالسبب أمام البنات اللواتي لا تفوتهن حصة إلى أن انفجرت ذات يوم صائحا:"لا أحضر دروس الصباح لأني أنام! نعم. أنام!". فتح موبوتو عينيه مندهشا ثم قهقه بصوت كالرعد المتصل وهو يدق سطح الطاولة بقبضته:" هههاي! يا رجل! تنام حقا ! تنام؟!". أحسست أني كنت سخيفا فقلت محرجا:" البرد يمنعني من النعاس طول الليل". ابتسمت البنات الأربع معا فى لحظة واحدة وزادت ماريا بأن غطت فمها لتكتم ضحكها. تسرب طيف بسمة إلى عيني " نينا أندريفنا" ثم قالت للجميع بلطف:" ما المضحك فى هذا يا جماعة؟ طارق مصري اعتاد على الأجواء الدافئة. طبيعي أن يشعر بالبرد". أحسست بالغضب من محاولة إثارة العطف عليَّ فزعقت فيها:"أنا أموت من البرد". لاحظت انفعالي فربتت على كتفي ورجتني بهدوء أن أجلس ثم خاطبتنا جميعا: "على أي حال ليس فى الطبيعة طقس سيئ. أتعلمون أن الزهور تنمو حتى فى الصقيع وقسوة الجليد؟ ". تأتأت ماريا بدهشة:"و..و.. ح.. حقا ؟". أردفت "نينا أندريفنا": " نعم. تنمو تحت سطح الجليد الشفاف وتبدو مثل دانتيلا من زهور بيضاء". سدد موبوتو سبابته فى اتجاه المعلمة وسأل:"أنت.. أنت"، وأكمل وهو يشير بطرف سبابته إلى عينه:"أنت رأيت ذلك بنفسك؟". قالت:

"نعم. أنا من تلك المناطق، من مدينة "دودينكا". هناك يمكنك أن ترى ورد الجليد، وأن تحس بأنفاسك وهي تتلاحق من الشعور الجياش بأن الحياة تنمو حتى فى العدم".

استبقتني "نينا أندريفنا" بعد انتهاء الدرس وسألتني:"ما رقم الحجرة التي تسكن فيها؟". قلت:"522 الطابق الخامس". غمغمت:"سآتي إليك وأوقظك قبل موعد الدرس بساعة". صباح اليوم التالي كنت نائما ورأسي مغطى بطرف البطانية عندما شعرت بيد تهز كتفي برفق وصوت يهمس:"طارق ياعزيزي. أفق. الساعة السابعة". تساءلت وأنا بين النوم واليقظة أيعقل أن تكون"نينا أندريفنا"؟! بلى. هي. اعتدلت وأنا دائخ أدير رأسي حولي كأنما بذلك قد تختفي "نينا أندريفنا" لكنها ظلت جالسة بطرف فخذها على حافة السرير تكرر:"ياعزيزي. عزيزي"! شكرتها بغمغمة متثائبا وأنا أفرك عيني. نهضت وانصرفت وزميلاي فى الحجرة يكتمان الدهشة من قدومها. فى اليوم التالي عادت ثانية تهمس لي أثناء نومي: "السابعة يا طارق"! هبطت إلى الدرس فى المرتين وبدني مطحون من قلة النوم وعقلي ملتهب يحرق كل ما أراه أو أسمعه.

قررت أن أفيق من النوم قبل حضور"نينا أندريفنا" في الصباح وأزوغ منها. كان الطلاب الأجانب يهبطون إلى قاعات الدروس ويتركون أبواب حجراتهم مفتوحة. استيقظت وجريت إلى أقرب حجرة مفتوحة ورقدت على أول سرير فيها أستكمل نومي. صحوت متأخرا ونزلت إلى الدرس. لم تقل "نينا أندريفنا" شيئا، لكن كان واضحا فى نظرتها أنها قصدت حجرتي وفوجئت بالهروب الكبير لأنها تأملتني ببسمة مندهشة كما لو أنني طفل قام بحركة طريفة لم تكن متوقعة. جلست إلى المنضدة وواصلت هي شرح الدرس ثم توقفت حتى ننتهى من تسجيل الكلمات الجديدة. كنت أتفادى نظرتها لكني وجدتها تثبت بصرها على صدري ثم ابتسمت لعايدة وقالت لها بنبرة عتاب:"آه ياعايدة..آه.. ياعايدة..ألا ترين أن زر قميص طارق مقطوع؟ وهو بالطبع مثله مثل كل الرجال لا يحسن خياطة زر، لكن أنت.. أنت البنت الجميلة، الذكية، كان المفروض أن تلاحظي ذلك وأن تقولي له هات القميص يا طارق.. لا.. لا.. ياعايدة ما هكذا تكون الجميلات!". احْمَر وجه عايدة وتمتمت: "حاضر. حاضر. بعد الدرس".

انقضت نحو ثلاثة أشهر على وجودنا في موسكو اعتادت ماريا خلالها علينا وكفت عن التطلع إلينا بنظرة متوسلة، لكنها ضاعفت من تلعثمها الرقيق، وأمسى من المألوف أن نرى موبوتو وهو يتناول الطعام مع هيلفي وراء منضدة واحدة فى مطعم الطلبة، أو وهما معا يسيران متشابكي الأيدي، تهرول خلفهما سايما تهز وجهها يمينا ويسارا كأنما تدفع عنهما الحسد. ودأبت عايدة على المجيء إلى حجرتي، تملأ المكان بالضوضاء والصخب وتطهو أحيانا ثلاث سمكات نحيفات، أو صحن مكرونة على الطريقة الكوبية. كنت أستمتع بضحكاتها العالية إلى أن تنهض فجأة لتنصرف فتنظر إليَّ بعينيها الجميلتين وتقول:"شوية حب. شوية دراسة". خلال تلك الأشهر الثلاثة قطعنا مرحلة لا بأس بها وأصبح بوسعنا أن نتكلم ونعبر عن أنفسنا قليلا وأن نقف فى المحلات ونسمى للباعة الخبز والجبن بأسمائها بدلا

من إشارات الأصابع ومواء القطط وغمغمات التائهين. حفظنا أرقام وأشكال الأتوبيسات التي تتجه إلى وسط المدينة والساحة الحمراء ومطاعم شارع "جوركي"، لكن الشعور بأننا فى عالم غريب لم يفارقنا، حتى السماء بدت لي غريبة، وكان يخيل إليَّ حينما أتطلع إليها أنها تزيح الضباب عن عينيها وتحدق بي بشك وازدراء:" هل سبق لي أن رأيتك؟ هل أنت من هنا؟ أم أنك وافد من بعيد؟". فى بعض الأمسيات كنت أتمشى بمفردي فى الشوارع وأحس دموعي تنسال على وجهي وأنا أتذكر منال والظروف التي فرقتنا، ودفء بيتنا، وأقداح الشاي الثقيل، وطيبة عمتي وخالتي، وجلبة المقاهي وأنسها، ثم أعزي نفسي بأن بقائي هنا لفترة مؤقتة أرجع بعدها إلى بلدي. كنت أتصور أن الحياة في موسكو أيسر على هيلفي، وسايما، لأن الطقس عندهما فى فنلندا بارد مشابه لأجواء روسيا إلى أن حل يوم كانت فيه "نينا أندريفنا" توضح لنا صيغتي الفعل التام والناقص ثم التفتت إلينا لتقول شيئا ولمحت "سايما" وهي تفرد ظهرها وتثنيه وعلى وجهها علامات تألم. سألتها بجزع:"ما بك؟"، أجابتها وهي تزم شفتيها: "ظهري يوجعني". سرت ومضة انتباه فى عيني" نينا أندريفنا" كأنما تلوم نفسها على شيء ما وقالت:"اسمعوا من فضلكم. جميعا. اسمعوا. إذا جلستم للدراسة فساعة واحدة فقط ثم انهضوا وقوموا بتمارين رياضية لمدة عشر دقائق. أتفهمون؟ هذا مهم جدا". وهزت رأسها يمينًا ويسارًا بأسف لأنها لم تلفت أنظارنا إلى ذلك من قبل. حينذاك أدركت أن الحياة هنا لم تكن صعبة علينا وحدنا، نحن أبناء الشمس، بل وعلى بنات الشمال الثلجي البارد.

قطعت بنا "نينا أندريفنا" مرحلة في تعلم اللغة وصارت تسقينا إياها من خلال النصوص الأدبية، تقرأ وتشرح لنا مقاطع سهلة صغيرة من قصائد بوشكين، وليرمنتوف، وبلوك، وغيرهم من كبار الشعراء وتكلفنا بحفظها. ذات يوم طلبت من كل منا أن يقف ويسمع ما حفظه. قمت وألقيت عدة أبيات من قصيدة "كونستانطين سيمونوف" المسماة "انتظريني". حاولت أن يكون نطقي سليما وأنا أستعيد القصيدة : "حينما يسأم المنتظرون، انتظريني. انتظريني لأني سأعود إليك، شرط أن تنتظري إلى النهاية، أما الذين لم ينتظروا فإنهم لن يدركوا قط أنك بانتظارك هذا قد أنقذتني من النيران". نهضت ماريا من بعدي وشرعت تقرأ من قصيدة "رسول حمزاتوف": "نساء كثيرات وأم واحدة . نجوم كثيرة وقمر واحد. بلدان كثيرة لكن وطن واحد". تلجلجت ماريا عند جملة "لكن وطن واحد". أعادتها بحروف متقطعة وشفتاها ترتجفان ثم بكت وانهارت جالسة. اندفعنا نحيط بها وهي في غمرة الشهيق والدموع. تطلعت "نينا أندريفنا" بأسى إلى ماريا. اندفعت سايمي تظهر الجانب الطيب فيها فطوقت كتفي ماريا بذراعها وهتفت فيها: "ما هذا يا ماريا؟ أنا أيضا أحن إلى وطني"، وسددت طرف إصبعها تشير إلى قلبها : "أنا أيضا عندي كوستاريكا هنا". هنا". وطارق وموبوتو، كلنا نحن لبلادنا، لكننا سننهي الدراسة عما قريب ونرجع لبلادنا". هيم فى الجو شعور بالحنين وبالغربة التي تتقطر من غيمة الذكريات. اعتذرت ماريا عن انفعالها وأخذت تضحك وهي تمسح عينيها. أغلقت "نينا أندريفنا" الكتاب الذي كان بيدها

وانهمكت تستفسر من ماريا عن أحوال أسرتها ووالدتها وكيف تعيش. للمرة الأولى راحت ماريا تتحدث بطلاقة من دون تأتأة أوثأثأة وتحكي بحيوية عن نوادرها مع أخيها الأصغر "ماركو".

حل شهر فبراير وأطل وجه السماء الدافئ. راحت كتل الثلوج البيضاء تنزلق من على أسطح السيارات المركونة وتتساقط وتجري على الأرض خيوط ماء، وأخذ الجليد المطبق على جذوع الشجر فى الذوبان. نضرت بواكير الربيع، واعشوشبت الأرض بالخضرة. تفتحت زهور صغيرة صفراء وحمراء على فروع الأشجار. لم يعد يفصل بيننا وبين الامتحانات سوى ثلاثة أشهر فتضاعفت ساعات الدرس والتفتيش عن معاني الكلمات فى القواميس وتوجيه الأسئلة إلى"نينا أندريفنا". طوتنا جميعا حالة انهماك توترت فيها قوانا لاجتياز الامتحان.

اليوم بدأنا الدرس من دون موبوتو. دخل بعد قليل متجهما على غير عادته، وخبط سطح المكتب بدفتر فى يده من دون مقدمات. خاطب"نينا أندريفنا" بانفعال: "معذرة، لكنني لن أكمل تعليمي هنا". دهشنا جميعا مما قاله لأنه كان أكثرنا تفوقا وقدرة على التحصيل. سألته " نينا أندريفنا" بقلق واستنكار:"ما هذا الذي تقوله ياموبوتو؟ لماذا قررت قطع دراستك؟!". أجابها وهو واقف يرفض الجلوس: "لأني أسود". فاجأتنا الكلمة كالقنبلة. فقد اعتدنا فى الكلية التحضيرية على أننا نعيش معًا وندرس معًا من مختلف الأعراق والألوان واللغات من دون تمييز. قال موبوتو: "الناس يتطلعون إليَّ أينما ذهبت، فى المحلات وفى محطات المترو والباصات. يتطلعون إليَّ طول الوقت باستغراب كأني عجبة!"، وأضاف بذهول من يرى المشهد وهو يحكيه: "وليت الأمر اقتصر على النظر. مساء أمس فى محل خبز اقترب مني صبي صغير كان برفقة والدته. بلل طرف إصبعه بلسانه ثم مر به على سطح ذراعي ليتحقق ما إن كان سوادي لونا طبيعيا أم صبغة تزول بالماء"! حل علينا صمت مشوب بالأسى من هول ما قاله. تقدمت "نينا أندريفنا" نحو موبوتو بوجه شاحب من فزع وذهول. قالت له: "لا تزعل ياعزيزي. لا تزعل. اعلم فقط أن الروس لم يشاهدوا من قبل مواطنا أسود، هذا كل ما في الأمر". وهزت كتفيها بحيرة كأنما تعتذر : "لم يظهر السود عندنا من قبل حتى بدأت البعثات الدراسية مؤخرا". هزت رأسها هزة تقطر بالأسف: "لكنهم لا يقصدون شيئا سيئا ياعزيزي. صدقني". استدارت إلينا تخاطبنا وأمارات الحزم على وجهها: " لكن عيب جدا أن تحدق مباشرة بشخص، أي شخص. فى كل الحالات عيب جدا. إذا لفت إنسان ما انتباهك لسبب أو آخر فيمكن أن تتطلع إليه فقط على هذا النحو". رفعت رأسها لأعلى وثبتت وجهها أمامها ثم حولت عينيها الاثنتين معا تماما إلى اليمين من دون أن تتحرك. انفجرنا جميعا بالضحك وقهقه موبوتو وهو يهز قبضته: "هاهاي! انظر يا رجل ماذا تفعل" نينا أندريفنا"؟! ههاي! كيف تفعلين هذا؟!". اقتربت منه " نينا أندريفنا" وقالت بجدية وبحيث نسمعها كلنا:" أنت جئت من بلدك إلى هنا لتدرس فلا تدع شيئا يقف فى طريقك". بسطت ذراعها نحو البنات الأربع: "ثم انظر يا موبوتو كم تحبك البنات هنا؟!". صاحت سايما: "طبعا نحبك.. أنت إنسان رائع". احمر وجه هيلفي ولم تقل شيئا.

وأمنت ماريا على ما سبق: "إ.. إ.. را.. را..إنسان رائع". ضمت "نينا أندريفنا" كفيها وهي تقول: "الآن يا أعزائي إني أدعوكم غدا إلى الغداء عندي فى البيت". نظرت هايفى إلى موبوتو نظرة دافئة كأنما تقول له: "المعلمة نفسها تحاول أن تطيب خاطرك. هل ترى كم أنت عزيز علينا؟".

فى اليوم التالي خرجنا إلى الشارع بعد انتهاء الدروس تتقدمنا " نينا أندريفنا" مثل دجاجة مندفعة ونحن نهرول مثل أفراخ خلفها. صعدنا إلى عربة الترام واشترت تذكرة لكل منا. بعد عشرين دقيقة هبطنا وسرنا خلفها إلى عمارة سكنية. توقفت بنا أمام باب شقتها ودقت الجرس. استولى علينا الفضول لأنه لم يسبق أن دخلنا منزلا روسيا. فتحت لنا امرأة مسنة ممتلئة وجهها صبوح بمنديل على رأسها وفوطة مدلاة من يدها. خلفها وقف صبي وفتاة صغيران متأنقين برباطي عنق أحمرين زاهيين، وراحا يزيحان أطراف فستان الجدة ويتطلعان إلينا وهما يهزان رأسيهما بسرور وفضول. بسطت " نينا أندريفنا" ذراعها تشير إلى المرأة: "أمي". وأضافت:"ولداي. مكسيم وتانيا". مضت أمامنا إلى صالة هادئة بدا منها أن الشقة صغيرة لكن نظيفة مرتبة. جلست البنات الأربع متجاورات على كنبة وجلسنا أنا وموبوتو على مقعدين في مواجهة مقعد المعلمة. جلنا بأبصارنا نتعرف إلى المكان. أثاث بسيط ، ومكتبة لصق جدار علقت عليه صور أدباء روس تتوسطها صورة بوشكين بحجم كبير. باعدت"نينا أندريفنا" ما بين ذراعيها مبتسمة: "هكذا نعيش". وراحت تسأل كل منا عما ينوي عمله بعد انهاء الجامعة، وما إن كانت فرص الشغل متوفرة فى بلادنا أم لا. قلت لها:"أتمنى، لو تمكنت من هذا أن أترجم الأعمال الأدبية إلى لغتنا". قال موبوتو إنه يحلم بأن يصبح مهندسا يقيم الجسور والكباري. ضحكت عايدة ضحكة من ليس بيده الأمر وقالت إنها ستعمل حيث تضعها الحكومة فى الريف، أو فى الجامعة، أو في مصنع. شرحت هيلفي صعوبة العثور على شغل فى هلسنكي واستدركت: " لكني أود لو عملت مترجمة فى الأمم المتحدة". رجعت "نينا أندريفنا" برأسها للخلف قليلا. قالت: "المهم أن تقوموا بما تحبون القيام به. لا تهدروا حياتكم في عمل ليس على هواكم". سألتها هيفي مبتسمة: "وهل أنت تحبين التدريس؟". قالت: "نعم. في رأيي هناك ثلاث مهن جديرة بالتقديس. الشاعر، والطبيب، والمعلم. لم تكن لدي موهبة الأدب ولا أتحمل رؤية الجراح المفتوحة في الطب، هكذا لم يبق لي سوى التدريس".

بعد قليل أقبلت الوالدة تحمل صواني طعام ومن خلفها الطفلان اللذان أحاطا بمقعد "نينا أندريفنا" وهما يختلسان النظر إلى موبوتو الذي بادلهما النظرات مبتسما لهما بحب. شرعنا نأكل من طبق "بلميني" الشهية، هي قطع عجين كل قطعة بحجم عقلة الإصبع ملفوفة على لحم مفروم، وشُربة "بورش" الروسية الصميمة، وبطاطس مهروسة بالثوم والزيت، إلى جوار قطع من الدجاج المحمر. أكلنا بنهم جعلني أقول: "لابد أن يغضب واحد منا مرة كل أسبوع مثلما غضب موبوتو لنضمن غداءنا هنا". ضحكت "نينا أندريفنا" ثم هتفت لعايدة فجأة قائلة بنبرة احتفالية:" آها.. يا لجمالك ياعايدة! هاهو الزر المقطوع قد عاد إلى قميص

طارق! نعم. نعم. لهذا خلق الأصدقاء!". جاءت بعد ذلك أقداح الشاي مع بسكويت وفطائر روسية رقيقة محشوة بالمربى. رفعت "نينا أندريفنا" بصرها إلى صورة بوشكين خلفها وقالت وفنجان الشاي بيدها: "هل لاحظتم أن شعر رأس بوشكين مجعد منفوش؟". كنا قد شاهدنا صور الشاعر من قبل لكننا لم ننتبه إلى ذلك. أضافت: "هذا لأن أصول بوشكين أفريقية حبشية"، وسددت نظرة إلى موبوتو وأردفت: "كان أسمر، ولو أنه توقف عن كتابة الشعر لأن أحدا ضايقه بكلمة أو نظرة لما كانت روسيا قد أصبحت بهذا الجمال". تمتمت هيلفي بمقطع من قصيدة بوشكين " لتثق ياصديقي.. ستشرق ثانية نجمة السعادة الساحرة". علقت "نينا أندريفنا": " نعم. كان بوشكين على حق. هناك نجمة سعادة معلقة في السماء، نجمة لكل إنسان، عليه أن يزيح الضباب عنها وأن يثق أنها في انتظاره". قالت ذلك ولمعت نظرتها منقطعة عما حولها، متوهجة كالذهب الملتهب. استمتعنا بالجلسة الدافئة، وشكرنا المعلمة ووالدتها وطفليها الصغيرين اللذين وقفا فى وداعنا وقد تشابكت أياديهما يكرران بسرور: " تعالوا إلينا كثيرا".

بحلول شهر مايو هبط الصيف بكامل بهائه. رأينا الشمس تزيح الغيوم وتشيع الدفء بقوة. أخيرا تخلصنا من المعاطف الشتوية الثقيلة والقلنسوات المصنوعة من الفرو والقفازات المبطنة والأحذية المرهقة التي تجر فيها قدمك كأنها جذع شجرة. شرعنا نرتدي قمصانا صيفية وأحذية خفيفة مع الاحتفاظ طول الوقت بمظلة، لأن أحدا لا يدري متى أو أين قد تمطر فى روسيا. تبقى أمامنا القليل من الوقت حتى نهاية العام الدراسي فعكفنا بجدية على مراجعة ما تعلمناه ثم أدينا الامتحانات واجتزناها جميعنا بنجاح. أقامت لنا إدارة الكلية حفل وداع طلابي حضره المعلمون والإداريون وجمعتنا خلاله منضدة واحدة مع "نينا أندريفنا". ودعناها وكنا نودع أيضا بعضنا البعض والعام الأول من وجودنا فى روسيا، وذكريات ومشاعر صغيرة عزيزة نمت وتفرعت في الجليد.

تم توزيعنا على الكليات حسب رغباتنا. دخلت كلية الأدب واللغة وانخرطت في الدراسة الجامعية. تناقصت لقاءاتي بعايدة بعد أن صار سكنها ودراستها في معهد بعيد، وتبين لنا مع الوقت صعوبة أو استحالة أن أتخلى عن القاهرة لأعيش معها في هافانا، أو أن تفارق هي هافانا، لكن ظلت في قلبينا جمرة دافئة من ذكريات الأمسيات المشتركة. كانت تنظر إليَّ أحيانا بعينين تغشاهما سحابة أسى رقيق وتضغط يدي قائلة : "كنا سعيدين معا، لعام، لنصف عام، أو حتى ليوم واحد، صدقني هذا ليس بالقليل". في الجامعة نشأت علاقات صداقة جديدة، ولم أعد أرى من زملاء التحضيرية سوى موبوتو الذي كان يظهر من حين لآخر مقهقها. نجلس معا فى مقصف الجامعة نأكل ونشرب ونأتي على ذكر البنات الأربع زميلاتنا، و"نينا أندريفنا". فى المرة الأخيرة جاءني موبوتو بصحبة هيلفي وأخبراني أنهما سيتزوجان. تطلعت هيلفي إليَّ بفرح وهي تضغط بقوة وسعادة ذراع موبوتو. عانقت الاثنين مهنئا وقلت لهما:"عثرتما على النجمة الساحرة". كنت سعيدا بالحب الذي اكتسح كل شيء. لم أعد ألتقي بعايدة حتى فاجأتني ذات يوم بزيارة مع شاب كوبي أسمر لطيف لا تفارق البسمة شفتيه. قدمته لي:

" كارلوس. صديقي". أدركت أنها تودعني فحدجت بها في صمت. نظرت إليَّ، وجذبت بإصبعيها زرًّا من قميصي وضحكت بحزن قائلة:" زر نينا أندريفنا الذي انخلع من مكانه ليصل ما بيننا" وهزت رأسها تومئ إلى كارلوس قائلة : "إنه يعرف كل شيء". تقدمت نحوها. تعانقنا بحرارة عناقا أخيرا ثم صافحت كارلوس بمودة وتقدير. انصرف الاثنان وهما يتصايحان بالإسبانية بحيوية ويلوحان بأياديهما في كل الاتجاهات.

فى العام قبل الأخير من سنوات الجامعة كان هواء الثلوج البيضاء قد سكن رئتي، غائرا بعمق فيهما، وتقطرت فى روحي اللحظات التي كنت أخرج فيها ليلا إلى الشوارع وأرى الحدود غائمة بين الأرض والسماء، حينما يسود هدوء غريب كأنه ليس من عالمنا، هدوء تكاد أن تسمع فيه تنفسك وأنت ترى صورة زفيرك تموج أمام عينيك مثل طيف خفيف. حولك أينما مددت بصرك ثلوج بيضاء شاسعة تبرق فوق جليدها خيوط زرقاء شاحبة من أعمدة الضوء. تشعر أنك وحدك تماما، لا ترى العالم لكنه يراك، منتزع من كل شيء، ذرة عابرة عارية في كون لا نهائي الأبدية. تفكر في مغزى وجودك الفريد الوحيد النادر، وتوشك أن تركع على ركبتيك في الثلج من الألم والوحدة، من الرعب والدموع، لأنك لا تدرك المغزى من كل هذا.

أنهيت دراستي. حجزت بطاقة الطائرة لأرجع إلى بلدي. حينذاك قررت أن أعرج على الكلية التحضيرية لأودع "نينا أندريفنا". قال لي الموظفون في الإدارة هناك إنها لم تعد تعمل لديهم وإنهم لا يعلمون عنها شيئا من فترة طويلة. أثارت قلقي النبرة الجافة التي تحدثوا بها. لم أدر ماذا حدث لها ولا أين هي ولم أعثر على وسيلة للاتصال بها. رجعت إلى مصر والتحقت بالعمل في إحدى الجامعات الإقليمية. كانت عايدة تخطر لي أحيانا ثم تغرق مشاغلي صورتها خاصة بعد ما صادفته من مصاعب عرقلت خططي وترقيتي فى الجامعة، بعد أن ترأس قسم اللغة الأجنبية شاب صغير كانت له "واسطة قوية". انشغلت بأحوال منزلي وزوجتي وطفلي. بعد نحو ثلاثة أعوام تلقيت اتصالا من موبوتو. لم أعرف كيف حصل على رقمي، وحين سألته عن ذلك قهقه قائلا : "موبوتو لا يعرف المستحيل". أخبرني أنه يعيش مع هيلفى في هلسنكي وأنه قرر- بما أنه أسمر - أن يصبح أمير شعراء فنلندا كما فعل بوشكين فى روسيا! دعاني لزيارته في هلسنكي بحرارة ووعدته أن أحاول. حينما أنهينا المكالمة خطرت لي ماريا وعايدة وتساءلت إن كانت سايما الطيبة ما زالت تهرول خلف شخص ما، أم أنها قد وجدت أخيرا طريقها الخاص بها وعثرت على نجمتها الساحرة. شعرت بالأسف لأنني لا أدري شيئا عنهم. زادت عليَّ أعباء الأسرة والعمل ولم أحقق شيئا مما خططت له، مضت حياتي كأنما اشتبكت قدماي بشَرَكٍ لم أتحرر منه. خلال ذلك كنت كثيرا ما أتذكر " نينا أندريفنا" فتستولي عليَّ رغبة قوية أن أعرف أين هي الآن؟ كيف تحيا؟ كيف تبدو بعد انقضاء تلك السنوات؟ وهل خبا في عينيها نور الأمل والحنان؟ وحلت فيهما نظرة التعب والأسى؟ أم أنها مازالت تتطلع إلى العالم بتلك النظرة المتوهجة كالذهب الملتهب مأخوذة إلى أعماقها منقطعة عما حولها؟

الـغـريـب

نام الأولاد وخيم الهدوء. جلس فى مضيفة الطابق الأول من بيته الريفي وأراح رأسه على المسند الخلفي. بعد قليل تناهت إليه أصوات غريبة مدغومة مثل موجة من ظلمة. نهض وهو ينفض جلبابه من رماد السجائر. خرج إلى الشرفة المفتوحة على الحديقة. كانت السحب تغطي وجه القمر في ليل شديد القتامة. استدار وألقى نظرة على أرضه الممتدة خلف الحديقة. "لا حركة" و"لا صوت". قبل أن يعود إلى الداخل سمع الأصوات الغريبة تقترب وتمسي أكثر وضوحا. دبيب أقدام مهرولة. ضجيج وصياح. صوتٌ يشق الأجواء بكلمة "غريب" محذرا مستنفرا. تنبهت حواسه كلها. لا معنى لكلمة"غريب" فى الليل سوى أن أحد الأشقياء سطا على زرع أو ماشية أو هجم على بيت يسرقه. فجأة تقصف سكون الليل من أزيز الرصاص، وتلاحق أمامه في السماء لهب برتقالي. اندفع مسرعًا إلى الداخل. لقط بندقيته. خطف تلفيعة صوفية ألقى بها على كتفيه. ركض إلى الخارج. تمهل عند بوابة البيت. زر عينيه فى العتمة يحاول أن يعرف مصدر الصوت. لمح على الطريق الضيق المحاذي للترعة كتلة بشرية تتحرك داخل شبورة. هرول على الجسر الخشبي حتى أدرك الرجال . كانوا واقفين محتشدين فى حلقة، بعضهم يحمل البنادق والبعض يمسك بشوم غليظة، يتبادلون الرأي بكلمات مقتضبة وهم يرسلون نظراتهم إلى كل ناحية بحثًا عن الغريب. لمح بين الواقفين ابن عمه حسين. اقترب منه. سأله لاهثا:"ماذا جرى؟". أجابه حسين بنبرة قاطعة:"غريب في البلد". استفسر بقلق:"ماذا فعل؟". قال له من دون أن ينظر ناحيته:" لا أدري. أبو اسماعيل هو الذي لمحه وراء الساقية". سأله:"أي ساقية؟". أجاب متبرما: " لا أدري". قالها وغاب وسط الآخرين يشق معهم سكة بين أعواد الزرع.

مشوا بغضب وتوتر رافعين فوهات البنادق، يدمدمون، يتلفتون حولهم إلى أن بلغوا أرض السلباوي التي هجرها أبناؤه فى نزاع فأمست خربة ثعابين وأعشاب سامة. لعن الغريب الذي جره فى الليل ليستنشق الغبار من بين الأقدام. ترى مَنْ يكون ذلك الغريب؟ ماذا فعل؟ أين يختفي فى الظلمة المديدة ؟. توقف عبد المولى والريح تهز أطراف جلبابه قائلا:" كأنه فص ملح وذاب"! هتف عبد الرسول بغلٍ: " لا يمكن أن يذهب بعيدا". زعق أبو اسماعيل وهو يؤرجح طرف بندقيته عاليا: " ها هو هناك. هو يا رجال". لعلع الرصاص في الاتجاه الذي أشار إليه أبو

اسماعيل ثم ساد الصمت. اندفع ثلاثة منهم إلى الأمام يخبطون الأرض بأطراف أقدامهم يتلمسون جثة مصاب أو قتيل برصاصهم. سمعهم من بعيد يرددون " لا أحد". عادوا من جديد كتلة تجتاح الليل تلمع عيونها بالشرر. بدأ يشعر بالتعب والإنهاك وبنغزة فى ذراعه اليسرى. تثاقلت خطواته إلى أن تخلف عن الحشد وأمسى بمفرده في الريح التي تعوي. التقط أنفاسه " لو كنت قد استفسرت عما رآه أبو اسماعيل؟ ماذا حدث؟ أين جرى؟". استراح قليلا ومد بصره إلى جهة اليسار ؛ فرأى مبنى قديما مهجورا يشبه مخزن غلال ترتفع أمامه شجرتان غارقتان في العتمة. تجمد مكانه تحت ضوء القمر الكئيب وأرهف السمع. نقيق الضفادع ينقر الصمت. فجأة لمح طرف تلفيعة يرفرف في الهواء ويتوارى خلف إحدى الشجرتين. قال لنفسه:" الغريب". تكهرب بدنه بالحذر والانفعال. كتم أنفاسه وسار ببطء على مدق رفيع نحو المبنى وإصبعه على زناد البندقية. توقف. خايله ظل التلفيعة كأنما قفز من وراء الشجرة إلي خلف كومة أحجار عالية. وثب عدة مرات فوق قنوات الماء. شقت أشواك الأغصان الجافة جلبابه من عند كتفه وانخلعت منه فردة من نعله وأحس بسن زجاجة ينغرز في باطن قدمه. توقف متألما:" الله يلعن الليلة السوداء التي جئت فيها". خطا عدة خطوات إلى اليمين وهو يعرج في مشيته. حط على حجر بارز من الأرض. أنزل بندقيته إلى جواره. تفكر في ما يجري والهواء البارد يضرب وجهه " ربما لا يكون لصا أو مجرما بل عاشق طوف ببيت امرأة ؟ للقرية أسرارها مثل كل القرى، من يدري؟". تساءل" ترى هل أيقظ ضجيج المطاردة أولاده أم أنهم مازالوا ينعمون بنومهم؟". أحسَّ بقطرات الدم تنز من قدمه. أدرك فجأة أنه وحده تماما في صمت يبرق كحد سكين، تغشاه رائحة التراب والموت من كل ناحية. ضرب فخذه بكفه يشحذ همته لينهض" الحق بالجماعة". تحامل على قدمه النازفة وخطا للأمام مسترشدا بالأصوات البعيدة. مشى إلى أن سمع دبيب الرجال عن قرب. ملأ صدره بأنفاس ارتياح عميق. لوَّح ببندقيته عاليا: " يا جماعة. يا جماعة". ترقب الرد، فانصبت عليه دفعات الرصاص كالمطر قبل أن يتبين أحد صوته أو كلماته. وافاه صوت صارخ بخشونة :" وجدناه. تعالوا ورائي. من هنا ". ضجت حركة أقدام الرجال يتقدمون نحوه. حل عليه الذهول. صاح مرتعدا من سوء الفهم: " أنا رؤوف حمدان"، لم يلحق بنطق الحروف الأخيرة إلا وكان الرصاص قد تطاير حوله بكثافة. علا الغبار وارتجت الأرض تحت قدميه من دبيب الخطوات المتدافعة. الآن أدرك أن الهمسة التي ستصدر عنه قد تؤدي إلى مصرعه. يعتقدون أنه الغريب. ترجرج في عينيه بريق الذهول ثم انطفأ وسقطت روحه في يأس أسود. قال لنفسه : " يفتحون النار بلا توقف من دون أن يتبينوا من أنت. سيقتلونني لو لبثت مكاني لحظة واحدة أخرى". التفت إلي الخلف وجرى يعرج تلاحقه غيمة أصوات تتشعب في الجو بتوتر، يئز بينها صوت صارخ

" لا تتركوه يفلت". جرى بأنفاس متقطعة إلى أن وجد نفسه قرب قبر منبوش، وخيالات الرجال تطول متمايلة كالأشباح خلفه. لم يشعر بالرصاصة الأولى التي اخترقت صدره، ولا بالثانية التي استقرت في كتفه. أحس فقط بنصفه العلوي يميل وبوجهه ينكفئ على التراب.

بحلول الصيف بزغ في الأرض الخربة زهر غريب يتوهج بقسوة بين الأعشاب والثعابين، وينفث روحًا وحشية تسبح فوق القرى.

***

غـــــــــدا

كان يسير فى الشارع معتمدًا على عصاه من ناحية وعلى ذراع زوجته النحيفة الناشفة. قالت له وهي تتطلع إلى واجهات المحلات:"إلى أين تقودنا؟". قال:"سأتذكر ونحن نمشي". تمهل واستند برسغ كفه إلى سطح سيارة واقفة وراح يعب الهواء. قالت بتهكم:" ستتذكر إلى أين نذهب أثناء السير؟ كأنما أنت عصفور يتذكر وجهته بينما يطير". ابتسم لها:" شفت؟ اتضح أنك متزوجة من عصفور من أربعين سنة"! سارعت إلى الرد:"عصفور لست أنكر أنك عصفور، لكن منتوف الريش يا روحي"! قهقهت. قال:" لكنك تزوجتني بالريش". أومأ برأسه إلى الرصيف المقابل. نظرت إلى هناك وغمغمت باستياء: "صيدلية الدكتورة أماني ثانية؟! لا أفهم سر ترددنا عليها كل ثلاثة أيام؟". مال يقطع الشارع إلي الناحية الأخرى:" الدكتورة أماني تبيعني الأدوية بسعر أرخص كما أنها تستقبل الناس حلو". لوَّحت بكفها باستنكار:" حلو؟ اسم الله يا حلو!" وجذبته من كوعه جذبة توبيخ فراحت ساقاه تترنحان في بنطلونه. عاتبها:"يا ولية كدت أن توقعيني". مصمصت شفتيها:" سلامتك يا أسد". دفعت باب الصيدلية الزجاجي أمامه. حرر ذراعه منها وتقدمها. نهضت د. أماني من وراء مكتبها ما إن دخلا. كان مجئ العجوز يسرها بنظرته التي تتوهج جمرة تحت رماد الزمن. رحبت بهما:" أهلا وسهلا". حدقت به تترقب أن يطلعها على ما يلزمه. ملى بصره من وجهها ومن عينيها الواسعتين الدافئتين اللتين تومضان في روحه بذكرى عزيزة غائمة. أفاق من النظر إليها فأخرج الروشتة وناولها إياها. مرت عليها ببصرها. قالت:" لكن ياعمو هذه الروشتة من ثلاثة أعوام مضت؟". يا الله! كم يحب نطقها كلمة عمو! طرية، لدنة، مشبعة بسكر، حتى ليخيل إليه أن فى فمها معمل حلويات يقدم ما عنده في الهواء. زمت زوجته شفتيها:"أي ثلاثة أعوام يا نور عيني؟ الدواء كتبه الدكتور من أسبوعين بس". تحير لحظة ثم قال:" دقيقة واحدة يادكتورة". قلب جيوب البنطلون والجاكتة وسأل زوجته:" أنت غسلت ملابس اليوم؟". ردت: " غسلت فى الفجرية". استفسر: " يعني هذا بنطلون الأمس أم بنطلون آخر؟". قالت:"إن كان لونه أزرق فهو بنطلون الأمس". شهق صائحا:"آه.. تذكرت اسم الدواء!". ابتسمت أماني مشجعة. قال:" الاسم يبدأ بحرف سي.. سيدو.. سيرا.. لا تقلقي طالما قد تذكرت أول حرف الباقي سهل". ضمت أماني جناحي البالطو الأبيض ولمعت فى عينيها الومضة التي تشق روحه. قالت لهما:" اقعدوا شوية فى

الهواء قدام الصيدلية إلى أن تتذكروا براحتكم". أشارت إلى الصبي الذي يعاونها أن يضع لهما كرسيين فى الخارج.

جلس على الكرسي ومد ساقه التي تؤلمه إلى الرصيف. لزم الصمت ثم انفجر فى زوجته:"أنت سبب هذه البهدلة كلها. قلت لك مئة مرة أن تخبريني إن كنت ستغسلين، وماذا ستغسلين". قالت متطلعة أمامها كأنما تخاطب شخصا آخر:"يسألني ماذا ستغسلين؟ سأغسل ملابس! ماذا أغسل؟! ملابس يا سبعي!". أدارت وجهها إليه:" اسمع. جاءتني فكرة. اتصل بالدكتور مصطفى واسأله؟". أخرج المحمول وراح يبحث فى الأسماء: "مصطفى.. وجدته. مصطفى عبد ربه". دقت على صدرها:" يا خرابي يارجل! الدكتور هو مصطفى خليل. عبد ربه هذا أخي. أخي يارجل!". قال:"جل من لا يسهو". طلب الرقم. صاح :"نعم يادكتور. عرفتني؟ ابن حلال والله. كنت عاوز أسألك عن اسم الدواء الذي كتبته لي في المرة الأخيرة؟ نعم؟ آه.. ياه.. آه. فهمت. كثر خيرك. ألف شكر". أنهى المكالمة واجما: "يقول إنه آخرة مرة قام بفحص عام ولم يكتب لي أي دواء". أطرق ساهمًا سارحًا : " ما من دواء".

خرجت الدكتورة أماني إلى الشارع. وقفت مستندة بكفها إلى حافة باب الصيدلية. سألته: " هل تذكرت اسم الدواء يا عمو؟". ومضة النور التي تشرق على كل شيء وتبعثه حيا. تمنى لو ظل جالسا مكانه سنة يسمع منها كلمة "عمو"ألف مرة. تنهد بأسف:" قال الطبيب إنه لم يكتب لي دواء. هُيىء لي، بل كنت واثقا تقريبا أن هناك دواء". ودعتهما أماني بهزة رأس وابتسامة ورجعت إلى داخل الصيدلية. نهض. توكأ على عصاه ليبدأ رحلة الرجوع إلى البيت. قالت زوجته:" لا يوجد دواء، أي أننا جئنا على الفاضي". طقطق بلسانه:"غريبة.. تهيأ لي أن ثمت دواء". قالت:" لا بأس، تمشينا في الهواء قليلا". قطعا الشارع إلى الجهة الأخرى وهما يواصلان الكلام. غمغم:" على أي حال سأمر على الصيدلية غدا ربما يظهر الدواء". قالت مدهوشة:" أي دواء هذا الذي سيظهر؟ ألم يقل لك الدكتور إنه ما من دواء؟". قال:" جَلَّ مَن لا يَسْهُو". قالت بحدة :" الطبيب يسهو؟ أم أنك أنت الذي تنسى كل شيء؟". توقف عند سيارة مركونة. استند برسغ كفه على سطحها وراح يعب الهواء فى شهقات متتابعة. انتظمت أنفاسه. حدج بها بجمرة روح تتوهج رغم الزمن. قال بإصرار:" مع ذلك سأمر عليها غدا. من يدري؟". تشبع صوته بالحنان فجأة وقال بخفوت:" صدقيني، لا يسع الإنسان أن يجزم بشيء. ولا أحد يدري ماذا سيحدث غدا. صدقيني".

***

رشــفــة عــشــق

وحتى بعد أن نزلا من الأتوبيس وبدأا يسيران على الرصيف ظل نبيل قابضًا على كف عمر ابن أخته. حاول عمر أن يتملص من قَبضة خاله ولم ينجح، فَّتنَّهد مستسلما "يارب! مش معقول كده"! نبيل خاله صحيح لكنه دون الخامسة والعشرين فكان عم-ر يناديه" بلبل" من دون تكليف. حاجة غريبة إنهم يعاملونه كأنه طفل مع أنه تجاوز العاشرة ويفهم كل شيء. هو، مثلا، مثلا يعني، يفهم أن بلبل يصحبه إلى الحلمية لكي يستطيع بلبل أن يرى"توتة" كل يوم خميس، وبحضور عمر تبدو الزيارة عائلية. وجوده مهم إذن. أمه أيضا تدرك هذا. رأته اليوم ممددا على الأريكة في الصالة، رأسه على وسادة صغيرة، يرفع ساقيه بالتناوب في الهواء، فقالت له: " ياعمر. المفروض تراجع دروسك"، وحين قال لها " اليوم الخميس يا ماما وأنا أنتظر بلبل" لزمت الصمت وأكملت سيرها إلي المطبخ. "توتة" أيضا تقدر أهمية وجوده، لهذا فإنها حين تودعهما هو وبلبل على باب الفيلا، تستبقي كفه لحظة بين يديها وتقول له بامتنان:"ما تغيبش عنا ياعمر". صحيح أن بصرها وهي تقول ذلك يزوغ ناحية بلبل لكنها تظل واعية بأهمية دوره منتبهة إليه. كان ذلك الاهتمام يسعد عمر لكن سعادته الكبرى كانت عندما يرى بلبل وتوتة وهما يتمشيان بين أشجار الحديقة. يجلس بعيدا يتصيدهما ببصره من بين الظلال وهما يتهامسان، ويشعر بأنه نور خفيف في الهواء. عمر يفهم كل شيء، ويحس كل شيء، مع ذلك يقبضون على كفه بحرص، ويلحون في السؤال عن واجبات المدرسة، كأنه مازال طفلا صغيرا! " يارب! مش معقول كده!".

يطمئن عمر على أناقته وهو في الطريق إلي فيلا "توتة". يمر بيده على قميصه الأصفر الكموني. البنطلون الأسود القصير محبوك عليه. الحذاء الأحمر الجديد نظيف. كل شيء تمام. فى نهاية هذا الشارع سيجدان محل بقالة كبيراً. يميلان من عنده يمينا. يتقدمان فى العتمة قليلا إلى أن يصلا إلى الفيلا بأسوار القرميد التي خبا لونها الأحمر. عند باب الفيلا سيقف بلبل مثل كل مرة يشد قامته بعصبية ونفاد صبر. يقرع الجرس. ستفتح "توتة" الباب الضخم ترحب بهما ثم تتقدمهما إلى الحديقة حيث يجلس جده حامد على كرسي خيزران فى روب بني يحملق بنظارته فى جريدة على ركبتيه. ستهتف توتة: "يا جدو... ده نبيل

وعمر". يرفع بصره من وراء النظارة. يغمغم مرحبا. فى معظم الزيارات يعيد الجد عليهما ذات القصة أنه لن يفارق منطقة الحلمية التي شيدت نسبة إلى الخديوي عباس حلمي الثاني، ويختتم حديثه كالعادة بقوله: " لن أبيع الفيلا مهما كان الثمن. ستبقى لـتوتة وحدها". كانت توته حفيدته الوحيدة من ابنه الضابط الذي توفي في الحرب، ولم يكن لديه سواها هي والفيلا القديمة.

توقفا أمام باب الفيلا ونسمة غروب تهب عليهما. قرع بلبل الجرس. فتحت توتة. قصيرة، ملفوفة العود، وجهها مدور مثل وجه قطة، شعرها ملموم إلى الوراء ذيل حصان، بعينها اليسرى حَوَل خفيف يعمق شعور الآخرين بجمالها. ما إن رأتهما حتى اتسعت عيناها بدهشة وقالت ضاحكة بصوت يشبه هديل الحمام: " إيه ده؟ مش معقول؟!". هي تنتظر هذه الزيارة كل يوم خميس فى هذا الوقت تحديدا، مع ذلك كانت تندهش من حضورهما بصدق، كما كانت تندهش من نفسها وكلماتها وكل ما حولها مئات المرات فى اليوم. هزت يد عمر بيدها الحانية اللدنة. مدت كفها إلى بلبل بخجل فبدا كأن لهبا ورديا تموج فى وجهه. عمر يلاحظ كل شيء. يفهم كل شيء. يرى أن كل شيء يتغير فى بلبل ما إن تطل توتة يصبح صوته أرق وأكثر خفوتا وحركاته أدق وأنفاسه بحساب، يصبح بلبل كائنا آخر. يفهم عمر كل هذا، وأكثر، والله، والله العظيم يفهم! دخلا، وبدأا يشعران بالنسائم المحملة بعطر المانجو تهف عليهما. استأذنت توتة منهما:" دقيقة واحدة. أدخل بابا لينام، لأنه بقى له مدة فى الجنينة، أخاف يبرد". لزما الصمت يتابعان حركتها بين ظلال أشجار تتلاقى بظلال أخرى.

جال عمر ببصره في الحديقة. من ينظر إلي الفيلا من الشارع لا يتصور أنها تحجب حديقة بهذا الجمال تتوسطها فسقية صغيرة وترتفع عند جوانبها أشجار الجوافة والمانجو بأوراقه المتهدلة. تحت جدران الفيلا قامت آرائكمن رخام ثقب المطر سطحه ببقع سوداء. عادت "توتة" معتذرة. قال بلبل مازحا: "نحن في انتظارك هنا من يومين". ضحكت:" لاء يا شيخ !". كانت تعقب على أي جملة بعبارة " لاء يا شيخ"، وتضحك بنبرة ما بين الاستنكار والتدلل واتهام الآخر بالمكر، وفي وجهها نور مفرح، وحينئذ تندى عيون بلبل بتوسل عميق غير مفهوم، فيتجمد قلب عمر مما يحسه ويراه. مضت أمامهما على الممر المرصوف بأحجار بزغ من بين شقوقها عشب أخضر. تتجه بهما إلي الشرفة الخشبية المفتوحة من داخل البيت على الحديقة. اعتذرت" توتة " وانصرفت. جلس الاثنان يرسلان البصر إلى النجوم المشعة بخفوت. رجعت "توتة " بصينية عليها ثلاثة فناجين شاي وعلبة بسكويت. جلست في مواجهة بلبل في فستان آخر غير الذي كانت ترتديه وبدت فيه كأنها قطعة من زرقة السماء. فردت أطراف الفستان

بضربات سريعة من يدها وسألت عمر عما إن كانت المدرسة صعبة أم سهلة. أجابها بكبرياء: " سهلة. طالما الواحد يذاكر خلاص". ضحكت: " لاء يا شيخ"! قالت له: "فاكر ياعمر لما كنت تقف قدام المروحة وماما تقول لك ابعد عن المروحة عشان ما تبردش؟ وأنت ترفرف بذراعيك فى الهواء وتقول لها" ياناس سيبوني.. عاوز أطير؟!". احمر وجه عمر: " آه .. بس ده كان زمان وأنا صغير". ربتت على كتفه تسأله: " أنت كنت عاوز تطير فعلا؟". هز رأسه أن نعم. صاحت ضاحكة مندهشة "يا واد ياجامد". طرق بلبل حافة فنجان الشاي بطرف الملعقة عدة مرات. عمر فاهم كل شيء. أدرك فورا أن وقت جولة الحديقة قد حان. في البداية سيمشون ثلاثتهم معا متجاورين، خلال ذلك سيحكي بلبل نكتة لتوتة. تضحك وتعقب " لاء يا شيخ" وهي تسدد نظرة إلى بلبل فتلمع عيناه. يتجولون إلى أن يوسع بلبل عينيه لعمر بنظرة جانبية حادة فيفهم عمر أن عليه أن يتركهما وحدهما ويقول:" ح أروح أستريح شوية على الكنبة". يبتعد عنهما. يتخير أريكة. ينفض الغبار من على سطحها. يجلس. يمد ساقيه أمامه. يخرج منديلا من ورق يدعك به جلد الحذاء. يعتدل. يرى بلبل وتوتة يسبحان معا فى الهواء الرقيق وضوء القمر يهبط على وجنتي" توتة" من بين فروع الشجر متكسرا في هسيس الأوراق تحت قدميها. بعيدا يجلس بلبل و" توتة " متقاربين على حافة سور الفسقية. يجلسان جنبا إلى جنب على حافة سور الفسقية. يحاول بلبل إمساك كفها. تشدها منه. يحاول ثانية. تضحك، ويترامى من ضحكها رذاذ من نور السعادة يدور منه رأس عمر في جلسته على الأريكة.

لكن.. ما هذا؟ ما الذي يراه عمر الآن؟ تزول البسمة من على وجه" توتة". يكسو ملامحها انفعال واضطراب. يكفهر وجه بلبل. ماذا جرى؟ ولم ترتفع نبرة الحوار الخشن بينهما؟. الآن يتراجع بلبل بصدره للوراء. تهز"توتة" كتفيها باستهجان. ما الذي يجري؟. فز عمر واقفا. أقبل بلبل نحوه. قال له بصوت قاطع: " يا للا ياعمر. لازم نمشي". رنا عمر إلي وجه " توتة". رآها نهب انفعال يتلون بالمرارة. مضى عمر صامتا وراء بلبل حتى باب الفيلا. وقفت"توتة" بفستانها الأزرق تكظم عاصفة إحباط وألم. ودعتهما بفتور حتى أنها لم تنظر تجاه بلبل. انتزعت بسمة ناحية عمر وقالت له:"مع السلامة ياعمر" لكن لم تقل له "ابقى تعالى".

فى طريق العودة جلس بلبل فى الأتوبيس مستندا بمرفقه على حافة النافذة يتطلع ساهما إلى البيوت والشوارع. وصلا إلى المنزل. بادرت أمه تستفسر باهتمام:"خير يا بلبل؟". أجابها باقتضاب وهو يرتمي على فوتيه فى الصالة: " الظاهر مافيش فايدة. هي بنت طيبة وجميلة لكن عنيدة، تشاجرنا واتفقنا أننا لا

نصلح للحياة معا. أظن أن هذه آخر مرة أراها فيها". لم يصدق عمر أذنيه إلى أن عاد بلبل يؤكد من جديد: "خلاص الحكاية مش نافعة"، ثم نهض مستاءً متجها إلى باب الشقة، خرج وصفق الباب خلفه بقوة. دخلت أمه حجرتها. لبث عمر وحده ساكنا. سار إلى حجرته ببطء. دخل وأغلق الباب عليه. جلس على طرف السرير. تدلت ذراعاه مرتخيتين. تذكر وجه توتة وهي تنتر يدها فى الهواء بنظرة متوترة وبلبل متجهم. ما الذي جرى بحيث يقول بلبل إنه لن يعود لرؤية توتة ؟. دخلت أخته الكبرى منال الحجرة. سألته:" ما لك ياعمر مشدود كده ليه؟". تمتم بصوت مختنق:" بلبل مش ح يشوف توتة ثاني". قالت باستغراب: "طيب. وأنت ما لك؟". تطلع إليها بذهول: "ما لي إزاي؟". رفعت حاجبيها متعجبة:" بلبل كبير وعارف بيعمل إيه. أنت بقى زعلان ليه؟!". خرجت وتركته وحده. نهض. خلع ملابسه بهمود. ارتدى"البيجاما". أطفأ النور. ارتقى السرير وسحب الغطاء حتى رقبته. أخته كبيرة وفى أولى جامعة، لكنها تقول:" وأنت مالك"! لن يلتقي بلبل وتوتة ثانية، وسيواصل هو الذهاب إلى المدرسة كل يوم، ويعكف بعد الظهر على الواجب، وسيقصد النادي في أيام الجمعة، يجلس تحت الشمسية أمام حمام السباحة، يسابق الأولاد، يشرب مياها غازية مثلجة، يتكلم مع أمه وأخته، لكنه سيشعر خلال ذلك كله أن شيئا مهما سينقصه بقوة، إنه لن يرى ثانية ضوء القمر الهابط من بين فروع الشجر على وجه " توتة"، ولن يسمع ضحكتها الخجلى بعطر المانجو، ولا هسيس أوراق الشجر تحت الأقدام الأربعة، ولن يرى نظرة التوسل العميق في عيني بلبل. سحب الغطاء بشدة على رأسه، سحبه حتى آخره، وأجهش بالبكاء الحار.

***

تــــحـــــرش

راح يرتقي سلم الأتوبيس وهو يدفع المتزاحمين بكتفيه وقبضتيه يمينا وشمالا. فتش بعينيه بسرعة حتى لمح مكانا شاغرا فهرول نحوه. حط بدنه على المقعد سعيدا بنجاحه. المشوار طويل يحتاج راحة. انتبه إلى أنه قعد بجوار شابة جميلة جالسة ناحية النافذة تلوح لشخص على الرصيف. قدَّر بنظرة خاطفة إليها أنها تخطت العشرين. ممتلئة. عيناها واسعتان. شفتاها مكتنزتان كحبتي فراولة. فطن إلى أنها جميلة بالفعل فضم ساقيه وركبتيه إلى بعضهما. لابد للبنت أن تشعر باحترام الناس لها. أدخل إصبعه خلف ياقة القميص يحك العرق في جلده. قال لنفسه: كان من الأفضل لو أني وجدت مقعدا قرب رجل لأن ملامسة فتاة أو امرأة سهوا قد تشعل خناقة تبدأ بصوت متوتر:" لو سمحت لم نفسك يا محترم" وتنتهي بصوت حياني يصل إلى آذان ركاب الأتوبيسات المحاذية:" تتعرضون لبنات الناس. تشمون أي قطعة لحم، ولا تستحون يا أوباش"! يا نهار أسود! بلغ الأمر حد "أوباش"! زحزح بفخذه بعيدا عن الفتاة بمسافة. ضم ساقيه بقوة أشد حتى أحس ركبتيه ترتجفان. أعوذ بالله. هز رأسه بأسف. أيعقل أن أتحرش بها وأنا رجل كبير السن؟ ثم أنها من عمر ابنتي! قطعا أصابتها لوثة لتظن أني أتحرش بها ! أتحرش؟ لو أنها تعلم عدد الأطباء الذين أتردد عليهم وأنواع الأدوية التي أتناولها بانتظام ما اتهمتني بتلك التهمة. حقن فيتامين للأعصاب. كالسيوم لهشاشة العظام. فوار للكلى. أسبرين لسيولة الدم. بخاخة ربو. أنا أتحرش؟! معقول يا بنتي؟ التحرش بالبنات للشباب الذي انقضت سنواته، وهو يعيش وحده من زمن بعيد، لا زوجة ولا ولد ولا حتى قطة صغيرة تموء وتبدد وحشته، فقط ذكريات وصور وأصوات الراحلين فيعزي نفسه بأنه سوف يأتنس بصحبة من رحلوا حين ينتقل إلى جوارهم وحينئذ لن يعود وحيدا. الان بعد هذه الحياة الطويلة تنشق الأرض أمام شخص في ظروفه عن شابة من سن ابنته تتجرأ وتقول "تحرش"؟! سبحان الله!

أقبل محصل التذاكر. توقف أمامه وطرق خشبة بطرف قلم. من خلف المحصل مر شاب يفسح لنفسه الطريق إلى المقاعد الخلفية فاختل توازن المحصل واندلق عليه بثقله وزحزحه قليلا فلامس كتفه كتف الفتاة. اختلس نظرة إليها. سارحة

بأفكارها، هل هي هيئة شابة شاردة؟ أم هي علامات استياء؟ تختزن غضبها وتجتره. تقول لنفسها:" عجوز لا يستحي. كلما ارتجت العربة مال عليَّ بكتفه". ياربي ! أنا؟ لاحول ولا قوة إلا بالله. هل يصل سوء الظن إلى هذا الحد؟ هذه قلة أدب لا يمكن ولا ينبغي السكوت عليها. إن لم أواجهها الآن فسوف تعتقد أنها على حق. ليس بالحتم أن أعنفها بالزعيق ولا أن أشتمها. يكفي إحراجها بطريقة لطيفة، بالذوق، كأن أقول لها: " عيب عليك يا ابنتي . أنا رجل كبير ومحترم. عيب والله". المهم أن أقول لها ذلك بابتسامة طيبة على مرأى من الركاب. لكنها ستتمادى وستقول:" الآن صرت تدّعي المسكنة والغلب. ياعيني! لو كنت تحترم نفسك ما قمت بذلك أصلا، لكنك بني آدم "عرة"! يا نهار مطين! عرة؟! الركاب جميعا شهود. لقد خاطبها بكل احترام. ومن حقه الآن أن يرد الصاع صاعين، أن يظهر أن لطفه وأدبه لم يكن ضعفا:" للأسف أهلك لم يحسنوا تربيتك". قالت وقد فنجلت عينيها: " والله ما أتركك إلا فى قسم الشرطة. هناك يتقنون معاملة أمثالك". وسوف تفز واقفة، وينهض هو الآخر، يلوح للركاب بيده:" أنتم شهود، لقد خاطبتها بمنتهى الاحترام". وتفاجئه بلكزة فى كتفه:" تتحرش بفتاة يا قليل الأدب؟!". التفت برقبته إلى الركاب يصيح بأعلى صوت:" أترون؟ هي التي بدأت باستخدام يدها وأنا.. وأنا.. أنا الذي بكل احترام".

انتبه فجأة إلى الفتاة وهي تنهض واقفة. تطلع إليها وهو يفيق من تصوراته. ابتسمت. أرجحت بين أصابعها قلادة رقبة فضية. تمتمت برقة:" بعد إذنك. أنا نازلة". ما هذا الصوت اللطيف الملائكي؟! غمرته سكينة مثل البلسم. زحزح ساقيه إلي فراغ الممر مرتبكا حائرا. خرجت الفتاة من حيز المقاعد. سارت إلى أن اقتربت من باب العربة. هناك استدارت ونظرت إليه مبتسمة. هبطت. شيعها ببصره من النافذة وهي تعبر الشارع:" سبحان الله! واضح أنها بنت مؤدبة من عائلة طيبة. لكن لو أنها كانت قد حسبت أنني احتككت بها عمدا ولو أنها كانت قالت:"عيب يا محترم" لكان لي معها حديث آخر. راحت تقطع الشارع إلى أن بلغت الرصيف الآخر. تابعها بنظره حتى لم يعد يرى سوى رأسها يلوح ويغيب فى الزحام بين رؤوس الآخرين، ثم اختفت تماما. لوَّح لها بكفه مودعًا، مرة، وأخرى. واضح أنها فتاة مهذبة من أسرة محترمة. لكن لماذا لم تلتفت نحوه حين كانت جالسة بالقرب منه لتقول له: " لا تؤاخذني. أنت تتنفس بصعوبة وتبدو منهكا. سلامتك. ما بك؟". كانت قريبة منه جدا ولم تقل شيئا.

***

هدية بسيطة

من الممر، خارج حجرته، تناهت إليه قهقهات مجلجلة. مال بعنقه من على سريره متطلعا إلى الباب. أنصت فتعرف إلى صوت الحاج عبد اللطيف وهو يستفسر:" الأستاذ صلاح العمري"، أي حجرة فى قسم الجراحة؟"، ومالبث الحاج أن دخل فى عباءة عربية بخطوط مذهبة. تحت إبطه حافظة أوراق ومن يده الأخرى تتدلى سلة خوص بورد. اتجه إلى صلاح يترجرج مثل فيل وبسط ذراعه نحوه زاعقا:" ألف حمدا لله على سلامتك يا جاري الغالي". انحنى على صلاح بكتفيه وكرشه الضخمة يلثم وجنتيه ويربت على كتفيه. اعتدل وجال ببصره فى الحجرة الضيقة التي اتسعت بالكاد لمقعدين وثلاجة تحت شباك. تحير أين يضع سلة الورد. قال له صلاح:" ضعها على سطح الثلاجة. على سطحها يا حاج". أزاح بحافة كفه طبقين فيهما فتات طعام وحط السلة. نظر إليها وحشر أنامله أسفل سيقان الورد، نفشها لأعلى يستحثها على الشموخ وهي نصف ذابلة. استدار الحاج إلى صلاح:"هدية بسيطة". برك على مقعد بالقرب من السرير وراح يوضح الأساس النظري للزيارة بدءًا من أن الناس للناس، وانتهاء بأن كل ما يبقى من الإنسان هو الذكرى العطرة. ذكرته كلمة "عطرة" بزجاجة كولونيا في جيبه. أخرجها ورشَّ منها بسخاء على رأس صلاح وعنقه وقفاه، ودلك أصابع كفي صلاح برذاذها إصبعا إصبعا ثم نهض وسلم بحرارة:" إجمد يا أسد". استدار منصرفا. ودعه صلاح قائلا :" تعبتك ياحاج". جاءته قهقهة الحاج من خارج الحجرة "هق. هق. هق. هدية بسيطة".

دخلت ممرضة شابة تحمل صينية طعام الغداء. وجدت سطح الثلاجة مشغولا بالسلة. أخذت تفتش بنظراتها عن مكان للصينية. أخيرا وضعتها على المقعد الجلدي قرب السرير وخرجت. تحامل صلاح على نفسه ليذهب إلى الحمام. سار بضع خطوات لكن كوعه ارتطم بطرف خوص السلة البارز فانقلبت على الأرض. ضغط على الجرس. جاءت الممرضة. لاحظت وهي ترفع السلة شرخا دقيقا فى الخوص فلصقته بقطعة شريط بيضاء. استلقى صلاح على السرير. حدث نفسه " ما نفع سلال الورد للمريض؟ لا شيء. إنها فقط تضفي وجاهة على من يأتي

بها. على أية حال لا مكان للسلة فى حجرة ضيقة كهذه. زحمة وبس". راح يهز رأسه على الوسادة فى تهويم خفيف إلى أن سمع طرقة انفتح بعدها الباب وأطل خيري غنام زميله فى العمل. سأله عن العملية بعينين سارحتين أبعد ما تكونان عن الاهتمام بما سأل. قبل أن ينطق صلاح بكلمة كان خيري قد أطرق يحدق بالفراغ بفم مفتوح وكادت أن تغشاه إغفاءة نوم. نهض معتذرا:" أستأذنك يا صلاح لازم أمشي. سعد ابن أختي نجح فى الجامعة، ولابد أن أهنئه ومشواره بعيد". قال صلاح: " ألف مبروك". تذكر السلة فأضاف:" ما رأيك لو تأخذ سلة الورد هذه هدية بسيطة لسعيد؟". صحَّح خيري الاسم " سعد. اسمه سعد" وأردف:" لكن كيف آخذها؟ لا يصح". استمات صلاح:" والله تأخذها. ستذبل هنا. الخوص ملصوق بقطعة لازق لكن غير ظاهرة".

خرج خيري من المستشفى. استقل "تاكسي" قاصدا بيت أخته الكبيرة هناء فى العباسية. استقبلته بالأحضان. لمحت السلة المدلاة من يده فقالت تعاتبه بامتنان: " لماذا أرهقت نفسك؟ تسلم لي يا حبيبي". تمتم:" هدية بسيطة". التفتت إلى الداخل تصيح:" ياسعد. تعال سلم على خالك". أقبل سعد بربطة عنق أرجوانية وعلى عينيه نظارة شمس مع أن الدنيا معتمة. سلم وشكر خاله على الهدية التي استنفرت فيه كرم الضيافة فقال له : " عندنا ملوخية حلوة قوي ياخالي". لكن خيري كان يتوق إلى النوم بأي ثمن فاستأذن وانصرف. قال سعد لأمه: " عرس شهاب صاحبي الليلة. لازم أخرج". بادرته على الفور:" حلو قوي. خذ سلة الورد للعريس. خذها". وقف يقلب الفكرة. لوحت بيدها:" خذها. خذها. ستذبل هنا". رش سعد الورد بماء وبقليل من العطر وأضاف قطعة لازق أخرى إلى الخوص. بعد ساعة دخل قاعة العرس المنيرة بيد تحمل السلة وأخرى تعدل وضع النظارة الشمسية. استقبله العريس بالأحضان. تناول السلة منه وحطها على الأرض، وأجلسه قربه قائلا: " أبو السعود ملك الأناقة. نورت الفرح. لكن لماذا التكاليف والتعب؟".تواضع سعد متمتما " هدية بسيطة".

صباح اليوم التالي كان صلاح قد أنهى إفطاره فى حجرته بالمستشفى حين دخل عليه المهندس حسين ذكرى ومعه سلة ورد. رفعها عاليا: " الورد للناس الورد. أين أضعها؟". أجابه صلاح" على سطح الثلاجة".أزاح حسين كوبا وطبقا فارغا وحشر السلة. رفع صلاح رأسه من على الوسادة ولمح قطعة اللازق البيضاء في الموضع ذاته. تعجب لأنه يعلم أنه ما من صلة بين خيري غنام الذي أخذ السلة من عنده بالأمس وبين حسين ذكرى الذي جاء بها الآن. بعد قليل انصرف حسين وظهرت الممرضة. قاست ضغط صلاح وقبل أن تخرج قالت له بابتسامة خجلى: " أنا عندي فرح ابن عمتي اليوم، ممكن آخذ الورد ده؟ هدية بسيطة؟".

***

وقــت حــلــو

قررت "فاطمة" أن تصحب طفليها إلى مصيف،أي مصيف، بأي ثمن، ومهما حصل. كان الولد والبنت يحلمان بالبحر، والشاطئ، ويلحان عليها كل يوم: "أولاد خالتنا راحوا الإسكندرية. أصحابنا فى الشقة قدامنا سافروا رأس البر. واحنا عمرنا ما شفنا بحر". ستصحبهما إلى مصيف، أي مصيف وبأي ثمن. أليس هذا من حقهما؟ ألا يُحسبان ضمن بني آدم مثل بقية أولاد الناس؟ طلبت إجازة من محل الخياطة الذي تعمل فيه. أحصت ما معها من نقود فى الكيس ورتبت الخطة فى دماغها. فى الرابعة عصر اليوم التالي وقفت أمام سيارة ركاب متجهة إلى بورسعيد بالطفلين وحقيبة. رفعت الحقيبة إلى سقف السيارة ثم دفعت الصغيرين بقبضة يدها فى ظهريهما ودخلت وراءهما إلى بطن السيارة وانحشرت مع ناجي فى الكنبة الخلفية. جلست وشالت نجوى على ركبتيها. تحركت السيارة فهلَّل ناجي من الفرح بمنظر الطريق وهمست نجوى لأمها:" الله ياماما. شكرا. أخذت لي المايوه؟". أحاطت كتفها بذراعها:" أيوه. أخذته". بعد ساعتين ونصف دخلت السيارة إلى بورسعيد. هبطت " فاطمة" وناولت السائق أجرته. مر بنظرة على عودها الملفوف ثم ثبت بصره فى عينيها يبثها رسالة، لكنها لم تعره اهتماما وانشغلت بإحصاء ما بقي من نقود. انتزعت حقيبتها من أعلى ومضت مع الصغيرين وهي تزر عينيها تحدج فى الشوارع." المفروض أنه شارع محمد علي". راحت تقطع الطريق والولد والبنت يتواثبان ويتلفتان إلى واجهات المحلات ويعلقان على كل شيء. " ها هو الشارع. سأمشي حتى أجد مقهى البورصة". سارت إلى أن رأت المقهى. " الآن ينبغي أن أدخل إلى شارع كسرى على اليسار. بعد شوية المفروض أرى البيت. يارب الست تحية تكون فى الشقة. لا في زيارة ولا مسافرة ولا انتقلت لمسكن آخر. الأهم أن يكون ربنا قد أعطاها الصحة وطول العمر". بعد قليل بانت لها شرفات البيت المغبرة المسورة بقضبان منبعجة فى الهواء. توقفت وأنزلت الحقيبة إلى الأرض وأسندت إلى جنبها كيسا بداخله سنادويتشات وزجاجة ماء وغيار نجوى. تطلعت إلى الطابق الثاني. لبثت لحظة فى مكانها وفخذها تنتفض بتوتر. أخرجت من جيبها قطعة لبان. قشرت غلافها ووضعتها فى فمها." ما كل هذا الخوف يا ربي؟!". جذبتها نجوى من أصابع كفها: " ماما.. جئت لي بالمايوه؟". ندت عنها زفرة من الشكوك والحيرة: " قلت لك أيوه". انحنت على ناجي بصوت قلق: " خليك حلو يا ناجي". طمأنها الولد بهزات من رأسهش:" عارف ياماما". سرت رعشة فى كتفيها. " يا يللا بنا". دخلت

العمارة ببطء وهي تتلفت حولها. ارتقت درج البيت بحرص. ها هو باب الشقة كما تتذكره. ساوت بيدها بلوزة نجوى الخضراء وشدت أطراف بنطلون ناجي إلى ما قبل ركبتيه. " يارب أنت حلاَّل العقد". عبرت حياتها الشاقة القصيرة أمامها كأنها غشاوة رقيقة. نفضت رأسها. طرقت الباب. فتحت صبية بوجه أسمر ممصوص وجلباب متسخ. قالت لها:" الست تحية؟". " أقول لها من؟". ردت ودقات قلبها تتسارع: " قولي لها ناس أقاربها". اختفت البنت وعادت تتفرس فيهم بعينين واسعتين من فوق لتحت. فتحت الباب لآخره. مضت بهم إلى صالة نصف معتمة وهم يتنشقون رائحة كرنب مسلوق. في الصالة نافذة واحدة عليها ستارة بيضاء مخرمة أطفأ التراب بياضها، خلفها شريط ملصوق على كسر في الزجاج. كنبة تحت النافذة كانت كسوتها بنية واسودت. كرسي فوتيه جلست عليه الست تحية مصبوبة في مقعدها لا يهتز فيها سوى أصابع قدم مطلة من صندل. بالضبط كما رأتها فاطمة في أول مرة. رفعت الست إليهم عينين يعلوهما جفنان سميكان ولم تبد على وجهها لا علامة ترحيب ولا استياء ولا أي شيء. انحنت فاطمة بتودد وابتسامة خاشعة: " مساء الخير يا أبله تحية" وسارعت لتقبيل يدها لكن الست سحبت كفها فاندفع ناجي إليها يطوق عنقها ويغمرها بقبلات متلاحقة. أزاحته بكوعها مأخوذة من المفاجأة: " خلاص. كفاية". عاد إلى موقعه وفرد قامته مثل جندي أدى واجبه. راحت الست تتأمل " فاطمة" بنظرة استغراب ثم انتبهت فأشارت بيدها إليهم أن اجلسوا. وثب الصغيران إلى الكنبة وجلست فاطمة على الحافة وركبتاها بارزتان في الهواء. قالت لنفسها إنهم لن يضايقوا أحدا. طعامهم معهم، وسيتسللون من طلعة النهار إلى شاطئ البحر ويرجعون فقط ساعة النوم. بس الأولاد يشوفوا البحر. قالت باستعطاف:

- أنا فاطمة يا أبله تحية. زوجة عباس.

قطبت تحية جبينها:

- عباس من؟

-ابن خالتك.

- خالتي من؟!

- لا مؤاخذة ابن عمتك.

- ليس لي ابن عمة بهذا الاسم.

- عباس الكهربائي. زرناك أنا وهو بعد زواجنا بشهرين. حتى بالأمارة كان عندك لامبة في الحمام صلحها لك. عباس الأسمراني الرفيع؟حتى حضرتك يومها شكرت فيه وقلت إنه ابن حلال.

- أي ابن حلال؟ وأي شهرين؟

قالت وصوتها يذوي:

- الأسمراني يا أبله تحية؟ أبو شنب خفيف؟ أنا زرتك معه بعد الفرح.

هزت الست رأسها كأنما قد يعيد إليها ذلك شيئا لا تتذكره، ثم قالت:

-آه.. عباس؟! الكهربائي؟

تنفست فاطمة الصعداء. قالت:

ـ نعم يا أبله.. نعم .. ربنا يخليك.
ـ ابن الحاج خلف؟ بياع الجبنة فى الفيوم؟ أين راح؟ أنا لم أره من عشر سنين.
– تعيشي أنت. أنا أيضا من الفيوم بس بعد الزواج قعدنا فى مصر وربنا أكرمنا بولدين، أما عباس فأعطاك عمره.
حدجتها الست بنظرة استفهام ثم قالت:
ـ نعم. نعم. تذكرت.
ـ قلنا نطمئن على حضرتك .
زامت الست تقلب فى رأسها الأسباب المحتملة للزيارة. فى تلك اللحظة وثبت نجوى من مكانها وقالت لأمها:" ماما.. جئت لي بالمايوه؟". دفعتها فاطمة برفق وقالت مبتسمة:
-- نجوى الصغيرة. خمس سنين.
همست نجوى لأخيها وهي تشير بإصبعها للأرض: " عندهم سجادة".
واصلت فاطمة :
ـوهذا المحروس ناجي. سبع سنين.
ظن ناجي أن ذكر اسمه إشارة له فانطلق إلى الست ليغرقها بالقبلات لكن الوقت أسعفها فوضعت ذراعها حاجزا. " خلاص يا ابني.الدنيا حر والناس عرقانة. أف".
رجع الولد ووقف أمام أمه يهمس لها:
ـ خلاص. أقعد بقى؟
التفتت الست إلى الصبية الشغالة بنبرة حادة :
ـ اجمعي الغسيل من على الحبل قبل ما تمطر.
ابتسمت فاطمة بتوسل ظاهر:
ـالحمد لله إن شفناك بخير يا ست تحية. أهلا وسهلا
ـ أهلا بك.
صاحت نجوى"أنا جعت يا ماما".
بحلقت الست فى البنت فبادرت فاطمة بسرعة بإدخال يدها فى الكيس:
ـ أنا جئت معي أكلهم، يكفي أسبوع بحاله.
أخرجت ساندويتشات ناولتها للولدين وباكو بسكويت دفعته نحو الست محرجة:
ـ أنا أخذت لك.. أخذت لحضرتك.. باكو بسكويت..
نظرت الست إليها بدهشة فأوضحت:
ـده بالعجوة.. من مصر.
أشاحت الست ببصرها. وضعت فاطمة الباكو على حافة المنضدة،وراحت تكرر شاردة"أهلا وسهلا". استدارت الست برقبتها "بت يا سعدية. نظفي قعر الحلة من الرز". التهمت نجوى الساندويتش بسرعة وصاحت في أمها:" ماما .. متى نروح البحر ياماما؟". لم تجد ردا ففركت عينيها وألقت رأسها على مسند الكنبة وأغفت، بينما فرد ناجي ظهره ساكتا يبحلق فى المرأتين. أصبح الجو مشحونا بالتوتر من الصمت والحرج وتسارع حركة أصابع قدم الست.
تشجعت فاطمة:

-كنت عاوزة أكلم حضرتك كلمتين وحدنا فى الطرقة.. ممكن؟
- اتفضلي.
نهضت الست ببطء معتمدة بقبضتيها على ذراعي المقعد. تابع ناجي المرأتين ببصره. كانت أمه تتكلم فى الطرقة بصوت خفيض لكن بعض الكلمات كانت تصل إليه. سمعها تكرر بابتهال وتوسل:" يومين بس.. خميس وجمعة ونسافر". لكن الست هزت رأسها عدة مرات علامة على الرفض وعادت إلى مقعدها وفاطمة وراءها وقد تدلت ذراعاها. وقفت فى منتصف الصالة لحظات ثم خبطت كتف نجوى توقظها. رفعتها إلى صدرها. أمسكت الحقيبة ومدت يدها الأخرى إلى الست:
-الحمد لله أن شفناك بخير.
مدت الست يدها من دون أن يظهر على وجهها المتهدل شيء.
خرج الثلاثة. كان الغروب قد بدأ يكسو الجو بشحوب. اتجهت فاطمة إلى شارع محمد علي ومنه مضت فى اتجاه البحر. توقفت عند الكورنيش. شعرت بهواء البحر يهب عليها أقوى وسمعت وشوشة الموج فى الهواء. تعلقت نظرتها بالفضاء المعتم. شالت نجوى. أوقفتها على قدميها فوق السور العريض لتريها البحر. وثب ناجي وجلس على السور ودلى ساقيه الناحية الأخرى يؤرجحهما. اعتلت فاطمة هي الأخرى السور وقعدت بين الصغيرين:
-البحر يا أولاد.
قال ناجي بغضب: -بس ياماما الست قابلتنا وحش. حتى الشاي ما قدمته.
قالت: لا يا حبيبي هي ست طيبة بس مريضة كمان هل يشرب أحد الشاي فى هذا الحر؟
قال: بس كان نفسنا نشوف البحر بالنهار.
قالت: وهل يتغير البحر بالنهار؟! بالعكس بالليل أجمل. شايف المراكب البعيدة منورة وحلوة؟ لا يمكن تشوفها هكذا غير بالليل.
أخرجت ساندويتشات جبن للعيال.عبت من زجاجة الماء ثم تركتها على السور. بدأت السماء تغيم وأمست الريح باردة وأخذت تتطاير في الهواء حبات المطر. قالت:
-يللا بنا يا أولاد. لازم نلحق عربيات مصر.
قالت نجوى: طيب لم جئنا بالمايوه ياماما؟
قالت لها: وماذا جرى؟ تعبنا من شيل المايوه قوي؟
رفعت نجوى. وضعتها على صدرها. بدأت رحلة العودة. سارت وناجي يمشى أمامها مطرقا ويداه معقودتان خلف ظهره. ألقت نظرة عليه، ارتعشت دموعها على فكها، ثم صاحت في الطفلين:
-والنبي قضينا وقت حلو يا أولاد.

***

اتـــصـــــال

كنت جالسًا على مقعد عريض وبيدي اليمنى سماعة الهاتف ملتصقة بأذني. عن يساري تمددت عمتي على الكنبة بجلباب منزلي واسع وفردت ساقيها. في مواجهتها جلس ابن أختي على كرسي، وكان يحدق بي بنظرة لم أفهمها. كانت عمتي تحدثه عن امرأة من أقاربنا وتصفها بأنها حمارة وغبية لم تستطع تربية أبنائها ولا الحفاظ على زوجها البغل. وأخذت تدلل على حماقة المرأة بحكايات وتفاصيل لا تنتهي. كانت كلماتها ترن في أذني ولا أعي معناها لأني كنت أرهف السمع بانتباه للطرف الآخر على الهاتف. ملت بصدري للأمام ربما لأسمع أوضح. كان محدثي كما تصورت من إذاعة أو جريدة يريد الحصول على تعليق مني على وضع سياسي أو ثقافي، ولم أكن أتابع بدقة ما جرى في الأسابيع الأخيرة، كنت أصادف أنباء عن مئات القتلى، وجهات متحاربة، ونازحين، من دون أن ألم بجذور الموضوع. لم أكن أدري من هو المتحدث مع ذلك رحت أنصت بتركيز إلى وشيش السماعة وحروف الصوت المهشم لعلني أفهم ما يقوله. في تلك الأثناء واصلت عمتي ثرثرتها الفارغة بصوت حاد فاستفزتني واستثارت أعصابي حتى أنه خطر لي أني قد أقوم بأي شيء لإيقافها عن الكلام. تطلعت إليها وأرجحت السماعة بيدي في الهواء لتفهم أن هناك مكالمة مهمة. رجوتها" من فضلك. أنا لا أكاد أسمع ما يقولونه. الزمي الصمت شوية. شوية بس". نظرت إليَّ بجانب عينها كأنما تستوثق من أن صوتا ما أو تعليقا صدر عني ثم عادت بوجهها ناحية ابن أختي واستأنفت حديثها وهي تؤكد ما ترويه بحركات وإشارات يديها. ضغطت السماعة على أذني بقوة. جاءني من بعيد صوت رجل يلقي التحية. ربما كان قد ذكر اسمه لكني لم أسمعه. رحبت به. سألني إن كنتُ من قرية "بشلا" بالدقهلية؟ ثم ضحك ضحكة متقطعة. لم أفهم المقصود بسؤاله ولا أهمية السؤال. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بقرية" بشلا"، لكني جاريته في الحديث:" بشلا" معروفة بالطبع، لكني من بلدة مجاورة لها". تقطعت ضحكته ثانية وهي تظهر وتغيب فى وشيش الصوت وقال:" نحن أقرباء إذن". قلت وأنا أحاول أن أتذكر اسمه إن كان قد عرفني بنفسه:" طبعا أقرباء". هتف بنبرة فظة: "المهم أن تكون مستعدا". أدركت أنه يعني التصريح أو التعليق الذي ينبغي أن أدلي به فقلت له: " نعم . نعم. تفضل". في هذه اللحظة لعلعت ضحكة عمتي في الجو. رميتها بنظرة غاضبة

فوجدتها تبتسم بسرور ويدها على فمها وهي ترجع برأسها للخلف وابن أختي ينظر إليها بطرب وسرور. لعنة الله عليكم، مستغرقون في الثرثرة بينما يستعدون هناك لتسجيل كلمتي على الهواء. نهرتها بحزم:" من فضلك اسكتي شوية. أنا لا أسمع ما يقولونه. هذا عمل". سددت إليَّ نظرة متحجرة لا مبالية وقلبت شفتها بازدراء خفيف؛ فلم أدر بنفسي إلا وأنا أنهض وأشدها من قفاها. رفعت جسمها في الهواء عاليا بيدي الاثنتين، كأني بدون وعي سألقي بها خارج الحجرة. وقف ابن أختى متشنجا صامتا. تذكرت على الفور على نحو مبهم أنها عمتي وأنها امرأة عجوز فأرخيت قبضتي وأنزلتها إلى الكنبة حيث كانت ثم اتجهت غاضبًا إلى ابن أختى وجذبته من قميصه ودفعته خارج الحجرة وهو مستسلم تماما. أمسكت السماعة بعد أن لزمت عمتي الصمت وشردت فيما فعلته معها. تناهى إليَّ صوت نسائي ينادي:" آلو.. آلو ؟". هتفت: " نعم. آلو؟ أنا معكم". لكن الصوت سرعان ما تلاشى كأنما ابتلعته هاوية مظلمة. صحت بقوة: " آلو؟!". لكني لم أسمع سوى وشيش عميق. صحت عدة مرات متتالية: " آلو" بدون جدوى. أنهيت المكالمة وجلست متكدرا. من الذي خاطبني؟ من أين؟ ماهي الرسالة التي كان ينبغي أن تصلني؟ وكيف ضاع مني اتصال كهذا مرتبط بعملي وحياتي؟

***

بــــيـــســـا

نقرات الطبلة المشدودة وإيقاعها المتقد بدأ برتفع بعد ساعة من احتشاد شباب الصحفيين عند الرصيف أمام نقابتهم صباحا، ووقوفهم يلوحون بقبضاتهم، ويؤرجحون لافتات الاحتجاج عاليا. هتفوا تحت شمس مايو الحارة: "ارفع صوتك.. قلها معانا.. حبس الكلمة عار وخيانة". على دَرَج النقابة وقف كبار السن من الصحفيين خلف صف الشباب يحتمون من الشمس ويتابعون ما يجري. فى الناحية المقابلة ركنت سيارتان مصفحتان سوداوان التف حولهما عساكر بخوذات على رؤوسهم وأصابعهم مستميتة على مواسير بنادق مدلاة من أكتافهم، وأبصارهم مثبتة إلى الرصيف المقابل. خلف العساكر جلس ثلاثة ضباط على كراسي أمالوا ظهورها إلى الجدار وراءهم يتابعون بوادر الاشتباك. المساحة بين الرصيفين ظلت خالية، كأنما منذورة لساعة الصدام. موجات من التوتر تروح وتجيء برسائل صامتة بين الرصيفين إلى أن أمسك كاتب عجوز بميكروفون ووجه سبابته إلى الرصيف الآخر حيث الشرطة:" احنا خلاص مش ح نطاطي.. احنا كرهنا الصوت الواطي". تلقف الشباب صيحة الكاتب واشتعلوا بها يتقدمون إلى الرصيف المقابل وينحسرون. اعتدل الضباط على الكراسي بتأهُّب واستخدم أحدهم جهاز اللاسلكي، وسرعان ما اقتحمت الشارع سيارة ثالثة مصفحة، انفتح بابها الخلفي وهبطت منه مجموعة من النساء والرجال فى مقدمتهم "أشرف توكتوك" أشهر لص توكتوك فى الجيزة، وفى أعقابه نزلت "سنية حشيشة" البدينة الشحيمة معلمة قهوة العمرانية، ثم هبطت "بيسا"، بعودها النحيل ووجهها البرونزي في بنطلون جينز ضيق وبلوزة بيضاء. وتوقف الجميع في حلقة عند حافة الرصيف قرب الضباط، وعلى الفور اعتلى "أشرف توكتوك" أكتاف رجلين وأبرز إصبعه الوسطى في الهواء يلعبها للصحفيين هاتفا:" يا ولاد الوسخة يا زبالة.. عاملين قال يعني رجالة"، ثم ظهرت الطبلة، أخرجتها "سنية حشيشة" من كيس قماش. مسحت على جلدها براحتها وأرسلت نقراتها المحمومة لتضبط للهتاف إيقاعه: " يا زبالة.. آآآه.. يازبالة". شقت نقرات الطبلة الجو وغمرت كل ما حولها بقوة وصخب. وما لبثت "بيسا" بأعوامها الثلاثين أن اندفعت إلى مركز

الحلقة. فردت وشاحا فى الجو حزمت به خصرها النحيل والنسوة يصحن "يللا يا بيسا.. وريهم". أخذت "بيسا"،التي ضبطت مرات فى بيوت دعارة، تلقي رأسها للوراء، تشبك أصابع يديها عاليا فى الهواء، تضرب الأرض بطرف قدمها، تتمايل للأمام والخلف مثل لسان من لهب، وتستدير فجأة تشير إلى الصحفيين بسبابتها "يازبالة.. آآه.. يازبالة". أحنى الكاتب العجوز رأسه بوجه محتقن وهمس لزميله: "فرقة المواطنين الشرفاء التابعة لوزارة الداخلية"، ورفع رأسه يردد: "الكلمة الحرة بكرة تبان.. رغم السجن والسجان". بدأت الأقدام من الجهتين تتقدم وتتراجع تدوس المساحة الشاغرة بينهما. انتزع صحفي شاب الميكروفون من يد الكاتب العجوز: "يا دستور يا دستور..امتى بلدنا تشوف النور". لم يتأخر "أشرف توكتوك" فى الرد بقوة: " تحيا مصر ليوم النصر.. يا خونة يا أوساخ العصر". حميت نقرات الطبلة، تسارعت، وبيسا تواصل الرقصة على الإيقاع المحموم، تلمع عيناها وهي تصيح "يا زبالة..آآه .. يازبالة".

فى تلك الأثناء كان الكاتب العجوز يمعن النظر إلى "بيسا". زر عينيه يستوثق إن كانت هي تلك التي يعرفها أم لا. هبط ببطء. اقترب منها يتفرس فى ملامحها. صاح بها: "بيسا؟". توقفت عن الرقص. مالت برأسها ناحيته: " تعرفني منين حضرتك؟". قال: " مش أنت بسمة؟ بسمة حسني من مساكن الزلزال؟ بيسا؟". أجابت بتحد: " أيوه أنا بيسا. تعرفني منين؟".قال: " أنا علاء فكري". نظرت إليه وغابت فى ذهول تتذكره. أضاف: "الصحفي اللي كتب عن ابنك المريض.. نسيتيني؟". اندلعت صورته في ذاكرتها مثل ومضة ضوء قوية. إنه هو الصحفي الذي ساندها حينما مرض صغيرها محمود فراحت تلهث به من مستشفى لأخرى فيقولون لها "سرطان وعلاجه غالي. استعوضي ربنا فيه. الأدوية غير متوفرة. يلزمك تحويل من وزراة الصحة. الأجهزة عاطلة اليوم"، والولد يذبل ساعة بعد أخرى على ذراعيها وتسوخ روحه إلى أن أرشدها أحد زبائنها إلى علاء فكري وشدد عليها: " لا تقولي لأحد إنني من أعطيتك رقم هاتفه". بعدها كتب علاء فكري عن طفلها ونشر صورته ولاحق وزارة الصحة حتى قررت علاج ابنها مجانا. نعم . تذكرته. تمتمت مرتبكة وقد همدت حرارة جسمها: "العفو يا أستاذ علاء.. معقول أنسى حضرتك؟". سألها: "ابنك أحسن دلوقت؟" سقط صوتها إلى قرارة بئر عميقة: "محمود؟ تعيش أنت. قعد شهر فى المستشفى وربنا رحمه. وقت العلاج كان فات خلاص". صمتت ثم أضافت: "أنا آسفة يا أستاذ.. كنت باقول زبالة كده يعني..ما أقصدكش إنت". راح يواسيها: "البقية فى حياتك. أنت مازلت شابة وتقدري تجيبي طفل تاني". أجابت: " أنا مش عاوزه طفل تاني، أنا عاوزه محمود اللي كان معايا". هز رأسه بتفهم وعاد إلى سلالم النقابة. سرحت "بيسا"

بخواطرها بعيدا. جرت دموعها في روحها. وضعت رأسها على صاج السيارة المصفحة تداري عينيها وجهشة بكاء. أطبقت قبضتها تسحق فيها الألم. مرت أمامها حياتها الشقية كلها منذ أن تُوفي والدها بواب العمارة النازح من الجنوب إلى القاهرة وانخراطها من صغرها فى كل الأشغال، بدءًا من بيع المناديل الورقية في الشوارع، حتى الخدمة في البيوت، إلى الدعارة، وخلال ذلك تعرفت إلى كل أشكال البشر، من ضربها ومن أهانها ومن أكل عليها أجرة ليلة، وقضت أيامًا في حجرات الحجز بأقسام الشرطة تعرضت فيها لشتى صنوف التحقير، ثم ظهر طفلها محمود فجأة، من زبون لا تذكر اسمه، قضت معه ساعتين في فندق. ظهر محمود أملاً وحيدًا في حياتها ثم فقدته، وقالت لنفسها: "ربنا أعطاني شيئا جميلا لا أستحقه ولهذا استرده مني"، ولم يعد للحياة طعم بعد ذلك ولم يعد لشيء معنى.

غرزت أظافرها في لحم ذراعها حتى ظهرت نقطة دم. لاح المخبر يصيح: " سكتي ليه يابيسا؟". رفعت جبينها من على صاج السيارة. سمعته يخاطب النسوة الأخريات: " ياللا يا مرة يا لبؤة أنت وهي..رقصوها". حميت نقرات الطبلة بإيقاعها اللاهب. تعالت زغاريد النسوة. جأر الرجال " أيوه.. أيوه". راحت "بيسا" تختلس النظرات إلى دَرَج النقابة وهي تلف عودها ببطء. سارع"أشرف توكتوك"يصفق بكفيه زاعقا: "هزي يا بت..هزي..عاوزين شغل". شبكت "بيسا" كفيها عاليا تحت الشمس الحارقة، برمت خصرها تدور بخدر وبصرها منكس إلى الأرض لا تحتمل أن ترسله ناحية علاء فكري وغمغمت بمرارة "آه يا زبالة". بكت. لفَّت خصرها وهزَّت ردفيها وبكت، وقرع الطبلة يعلو بقوة وصخب ويغمر كل شيء.

***

تـغريـدة عنـدلـيـب

استيقظتُ على زخات المطر تطرق نوافذ البيت. دفعت الغطاء بقدمي ونهضت. ألصقت جبيني بالزجاج البارد أرقب فوران الريح في العراء. تشابحت أمامي ملامح ابني وزوجتي التي توفيت حزنا عليه وصور من جلوسنا على شاطيء وعيشتنا في البيت ووجهه ضاحكا يتعلم المشي ويداه ممدودتان إلى أمه. تراجعت مبتعدا عن غيم أنفاسي على النافذة. لم يعد شيء يربطني بداري، وأنا منذ زمنأُمَنَّينفسي بترحال يزودني بحكاية أرويها وتمدني بالقوة.

أفقت في الصباح وقد استقر رأيي على الخروج إلى البلاد. بدأت رحلتي عصرا في جو لطيف وريح ساكنة. مشيت على مهل بمحاذاة النهر. حدقت بأمواجه الصغيرة تعلو وتلحق بعضها البعض ولم أجد الحكاية. أمعنت النظر إلى زنابق المياه وأوراقها الخضراء السابحة، إلى الأسماك تتواثب تضرب الماء بذيولها، فحصت كئوس الورد في البساتين فلم أجد في قلبها سوى ضوء الشمس البرتقالي. قلبت عناقيد العنب الأحمر من دون جدوى. فجر اليوم التالي رحت أفرك قطرات الندى يحدوني أمل. لم أر الحكاية على الأرض، أما السماء فلا سبيل إليها سوى طير محلق، وأنا مقيد في مكاني. اتجهت إلى عصفور دوري واقف على حافة بئر، سألته إن كانت لديه حكاية. استفسرت من نسر متكبر وغراب أحمق وطائر السمامة الذي يقضي معظم حياته في السماء، ولم يجبني سوى يمامة لينة هدلت تقول:" كل من صادفته من طير وشجر وموج يحفظ الحكاية التي تبحث عنها، وتحفظها رمال الصحارى والأبواب العتيقة، لكن ليس كل من عرف الحكاية يبوح بها، لأنها بحاجة إلى صوت جميل احتياج النغمة الى وتر مرهف. لهذا لا يغرد بها سوى العندليب". ظهر على وجهي أني أستحثها على مواصلة الكلام فقالت: "في حنجرته تسكن الحكايات كلها فابحث عنه". صمتت ثم أضافت بشرود:" كان العندليب صديقا مقربا مني ولولا تفاخره بنفسه لرأيتنا معا في عش واحد".

سرت أصل الليل بالنهار، أتلفت إلى فروع الأشجار من حولي، أتطلع إلى السماء لعلني ألمح العندليب المغرد ولو خطفا. وقع بصري على سرب بجع يرفرف في السماء مثل وشاح أبيض طويل مرسلا غناءً عذبا ثم توارى. هرولت ألتقط صدى

غنوته من على التراب، لكني لم ألق في جوف الصدى سوى فتافيت نغمة بددتها الريح. نال مني التعب. رقدت على أرض بستان ورأسي على حجر وكومة قش. عاودتني في المنام صورة ابني الذي اختفى من سنوات، ثم أفقت بعد مدة على تغريد آسر. رفعت رأسي. رأيت العندليب على غصن شجرة لم تكن قائمة من قبل. تطلعت إلى العندليب مأخوذا بلون ريشه الأخضر ومنقاره الأحمر لكنه لم يشعر بوجودي. قطرت ماء في راحة كفي. رفعتها إليه. التفت وراح يعب الماء برزانة الأمراء. قلت أطمئنه:" ياصاحب الصوت الجميل، أنا راوٍ جوال أبحث عن حكاية تمدني بالقوة". أمعن النظر إليَّ:" هل أنت أديب؟". قلتُ مدهوشا:" لا. لست أديبا". حدجني بشك قائلا:" لكنك بحاجبيك الغليظين تشبه كاتبا سردتُ عليه حكاية ووعدني بفستق ولوز". قالها وأدار منقاره متأففا. سعيت لاستمالته:" أيها البهي، لابد أنك وأنت تصل الأرض بالسماء قد سمعت حكاية من سحابة أو غزالة أو نور نجمة زرقاء؟". انفكت أسارير العندليب من توقيري إياه وتمتم بلطف:" الحقُ أن لدي حكاية عن فتاة رائعة الجمال قبلت ضفدعا فردته القبلة إلى أصله أميرا وسيما". قلت بتأدب:" أعرفها أيها البهي". صدر عنه صفير التأمل:" ممم.. عندي واحدة قد تكون محزنة لكنها حقيقية، سأسردها عليك". رفع العندليب رقبته لأعلى وجال بعينيه الصغيرتين في الغصون الزيتونية وشرع يغرد حكاية كأن شعاعا من الحكاية يحتويه ويعزله عما حوله:" كان ياما كان، بلدة عاشت على نهر، آمنة، ترعى وتزرع. في شمالها الشرقي قلعة حصينة تحمي طريق التجارة وتصد الغزاة. ذات يوم تسلل البرابرة تحت جنح الظلام واستولوا على القلعة. قطعوا أعناق حراسها وشردوا الباقين منهم في الصحراء فلاقوا حتفهم عطشا وجوعا إلا جنديا واحدا، تملَّص من الموت ليدخل إلى الحكاية كما تتملص المياه من صخر لتصبح جزءا من وردة. جندي لم نعرف له اسما، لكي تتآلف في وجوده غير المسمى آلاف البشر الذين يقاتلون في شدة الانكسار من دون حساب للربح أو الخسارة.

رقد الجندي على الرمال غائبا عن الوعي إلى أن أفاق ساعة الغروب. تململ في رقدته. غرز مرفقيه في الرمل يرفع صدره. جال ببصره بين أشلاء رفاقه المبعثرة من حوله وقد تناثرت بجوارها خوذات وصناديق ذخيرة برزت منها أحزمة رصاص وأعقاب بنادق محطمة. رنا إلى أعين أصحابه المفتوحة بنداء أخير على السماء. لن يبقى من رفاقه سوى أنفاس تتبدد يوما بعد يوم في لون الغروب. تحامل على نفسه ونهض واقفا. ترنح وأحس بألم في كتفه اليمنى. استدار بعقبيه نصف استدارة يستشرف ما حوله. سدد نظرة إلى الشمال. مدى واسع من التلال والرمال يفصله عن القلعة، لكنها قائمة أمام عينيه من ذكرياته. الخندق المحفور الذي

يطوقها. البوابة المصفحة بالحديد. السور المرتفع والأبراج الأربعة في أركانه. مدخل النفق المفضي إلى البحر لصد السفن. تساءل: " كيف تهدم التاريخ والذكريات في لحظة؟". قال لنفسه:" عليَّ أن أعبر البحر الصغير راجعا إلى قريتي لأواصل حياتي بسلام وأنسى كل ما جرى.. لكن أليس النسيان ممتلئا بالذكريات؟ ألن تنخر روحي كل لحظة مرارة الانكسار؟". أرجح رأسه بيأس. غفا تحت ضوء النجوم الذي كسا صفرة الرمال. استيقظ في الفجر. لقط من على الأرض زمزمية ممتلئة بالماء. قدر أنه إذا بدأ سيره الآن فسيصل إلى القلعة عند الغروب.

سار الجندي بمشية عسكرية. واحد اثنان. واحد اثنان. كان لابد له أن يمشي هذه المشية ليزود الحكاية بإيقاعها المنتظم. مشى بمحاذاة شاطئ البحر بالنخيل. هنا، كان يركب القارب مع والده. يملأ رئتيه بهواء البحر. حينذاك، كما الآن، نبضت السماء بطيور بيضاء لم يعرف أسماءها قط ولا إلى أين ترتحل، وأحبها، كما أحب الرمال التي تذروها الريح، والهواء الذي لا يدري من أين يهب ولا أين يتبدد. مشى الجندي طويلا إلي أن لاحت له أسوار القلعة تحت الشمس وعن يمينها مقابر الأهل القديمة. تدفق الدم إلى وجنتيه. واحد اثنان. واحد اثنان. أخيرا أصبح في مرمى حراس الأبراج. لمحوه فأرجحوا راياتهم لأعلى وأسفل، وفتحت بوابة القلعة بصرير مرتفع وخرج منها فرسان أربعة على خيولهم مشى بينهم قائد عسكري في صدرية حديدية وبين ساقيه كلب لمعت عيناه بضراوة. توقف القائد وحدج الجندي ببصره:"هل هناك من يتبعك؟". أجابه:" لا. جئت بمفردي". استفسر:" هل أنت حامل رسالة؟". أجابه الجندي: "لا . لا أحمل رسالة من أحد". قال القائد باستخفاف:" إذن كان عليك أن تعود إلي بلدتك لتحيا بسلام". رد عليه الجندي: " كان ذلك أول ما خطر لي، ثم سألت نفسي: وهل تقوم حياة على ماء هزيمة وخبز انكسار؟ أليس هذا موتًا بسلام؟". قال القائد باستهزاء:" وما الذي تتصور أنك قد تحققه وحيدا، بكتف مصابة، ومجردا من الأمل؟". نفض الجندي الهواء الساخن حول كتفه قائلا:" من قال إني مجرد من الأمل؟". ابتسم القائد:" الأمل في أن تهزم قلعة بمفردك؟". أجابه:" لم أعقد أملاً على حصاد معركة. لكن أملي كله كان أن أصون شعوري بأنني لم أنكسر، كنت خطوة فخطوة وأنا أسير نحوكم أحمي جمرة روحي من الانطفاء". قال القائد باستغراب:" نجوت من الموت في الصحارى فجئت إليه هنا؟". أجابه الجندي:" يوما ما سنموت جميعا. البشر، والعصافير، والدموع، والرياحين، وحتى هذا الهواء الذي حولنا، لكن لابد لنا قبل الموت أن نحمي حرارة قلوبنا ما دمنا أحياء". هز القائد رأسه واستدار راجعًا يتبعه كلبه ينبح خلفه بقوة. سادت لحظة صمت كأنما دهر. امتدت يده اليسرى تستل غدارته من قرابها. تأرجحت ذراعه وهو يطلق رصاصته الوحيدة نحو القلعة. وفي التو

انهمرت زخات الرصاص ومزقت بدنه عشرات الطلقات. سقط الجندي الوحيد على الأرض، وصعدت من الثقوب التي اخترمت جسده هذه الحكاية، ملونة بقطر الدم، مشعة من نظرته الأخيرة ومن سيره إلي القتال وهو في شدة الانكسار، صعدت الحكاية ودومت بها الريح وراحت تتنقل من صوت طائر إلي لمعة صخرة، ومن جذور شجرة إلي وردها، ويسمعها عندليب من نور نجمة زرقاء فيرددها بصوته العذب. صمت العندليب في كبرياء. خفق قلبي بلهفة وأسى، تذكرت ابني حين أفلتت منه سمكة ونحن في عرض البحر فوثب خلفها يضرب الأمواج بذراعيه النحيلتين حتى عاد بها. هززت للعندليب رأسي:" أصبح عندي حكاية جديدة. لك أصدق آيات العرفان يا صاحب الصوت الجميل، ووداعًا". استدرت لأرحل ثم تذكرت شيئا فتمهلت وقلت له:" اليمامة تهديك سلامها". سألني باستغراب:" هل قابلتها؟". أجبته:" نعم". هز منقاره بأسف:" أفسدت صداقتنا بالغيرة". أطلق تنهيدة ورفرف محلقا.

سرت بمحاذاة شاطئ البحر تحت الفجر الشاحب. استرحت في المساء. أكلت لقمة وشربت الشاي وأنا أحكي الحكاية لمن تجمعوا حولي في مزارع الزيتون. في الصباح واصلت طريقي أروي الحكاية للعابرين والفلاحين والصيادين. ذاعت تغريدة العندليب، وترددت حكمتها أننا لا نفوز إلا بالطريق الذي نمشي عليه، هو المكافأة التي تنتظرنا في ختام الرحلة، وتعلم العشاق أن العشق هو السير على طريق العشق حتى لو لم يحظوا بالوصال، وأدرك المقاتلون أن الانتصار الحقيقي أن يحموا جمرة الشجاعة، وعرف الشعراء أن الشعر في اتقاد الخيال بالقصائد حتى لو لم ينظموها.

استرحت في منزلي عشرة أيام ثم اتخذت طريقي إلى الشمال. سرت طويلا إلى أن تبدت أسوار القلعة. شاهدني الحراس من أبراجهم فلوَّحوا براياتهم عدة مرات لأسفل وأعلى. تقدمت ووقفت ثابتا تحت ظلال القلعة. علا صرير البوابة وهي تنفتح ببطء. رفعت قبضتي عاليا في الهواء فتفتحت كئوس الورد وكشفت قطرات الندى عن قلوبها الغضة، تكلمت رمال الصحارى والأبواب العتيقة وغمغمت حتى المحارة المبتلة على شاطئ. الآن صرت على يقين أن تغريدة العندليب سترفرف ملء الكون، مشبعة بحنانها الغامر على السائرين وحدهم، في الدروب المنهكة.

***

رسـائـل من الـقـلــب

-1 -

عامرة أنت بالألوان وقلبي لايكفي لوصف جمالك. أحيا في حنانك الوردي، في زرقة لهفتك، في محبتك البيضاء، وأغمض عيني فيغمرني منك لون النار.

-2-

تلوحين مطرًا عندما يشتد عطشي. تفاحة حينما أجوع. حلمًا حينما أنام. ولا أنت مطر ولا تفاحة ولا حلم. تلوحين دربًا أخضر حينما تُسد كل الدروب. تهبطين فى الصقيع دفئا ناعما، وكلما زادوا قساوة تطلين حنانا غامرا. ولا أنت درب ولا دفء ولا حنان! فى الأرض كأنك السماء. فى الغربة كأنك وطن. فى السجن حرية. ولا أنت سماء ولا وطن ولا حرية! تلوحين من بداياتي إلى نهاياتي، فى إشراقي وفى انحداري بعمري الباقي. تلوحين طيفا، أوعمود دخان فى انكسار ضوء، أو هزة كتف واستدارة رقبة. أوشك طريقنا على النهاية وأنا ما زلت لا أدري من أنتِ؟ ما أنتِ؟ ولا ما الذي يربط دمي بخيال من خيال؟! ولمَ كلما حدقتُ بالأرض أرفع بصري إلى السماء؟ وأقول لنفسي ربما، ربما تهبطين، أو تعلو الأرض إلى السما، ربما.

-3-

تملئين كل حجرات قلبي. تقطعين ممراته الممتدة ذهابا وإيابا. تجلسين على الأرائك والمقاعد. تصعدين وتهبطين على درج الروح. عطر يدك على مقابض الأبواب. عيناك على النوافذ تفتحها وتغلقها. أنفاسك تطلق الربيع وتجمعه . تسندين ذقنك الصغيرة إلى قبضة يدك. تحدقين بي فى صمت؟ إلى متى؟ أضعف الرجاء أن تتنهدي. أن تقولي شيئا. كلميني! ألستُ صاحب المكان الذي تسكنين؟!

-4-

يندلع دمي فتسبحين وردة في نار. أمد يدي نحوك. تذوب أوراقك. تصبح عطرا من دمي. تخطرين فوق الجسور الممتدة من روحي إلى طيفك. تتمهلين. تتلفتين. لا أحد يراك سوى محبتي. وحدها تتطلع إليك. تشبكين كفيك عاليا في السماء. تدورين مثل لسان من لهب. تميلين للأمام والخلف. تضربين روحي بأطراف قدميك الصغيرتين. تواصلين اختراق قلبي وأنت ترقصين. ترمينني بنظرة وبسمة خفيفة. ألمح

غمازتي وجنتيك ملهوفا على جمالك الذي بدأ من عنده كل جمال، على لحنك الذي أخذت منه كل الألحان، وألوانك التي بدأت بها كل الألوان. وهبك الله كل هذا الجمال، فلماذا لم يمنحني قلبا قادرا على الاحتمال؟

-5-

يوم سعيد حين فتحت عيني ورأيتك جالسة على طرف السرير تميلين بصدرك على صدري وأنا لم أفق من نومي. ملأت عيناك قلبي بالجمال. رفعت رأسي قليلا وقبلت أطراف شعرك. ضممتك إليَّ طويلا. سألتني بصوت دافئ: استيقظت؟ قلت: نعم. ضممتك بقوة. تشبثت أصابعي بكتفيك كي لا تبتعدي. ضحكت، فملأت ضحكتك روحي بالبهجة. نهضت واقفا من دون أن أفلت يدك من يدي. مضينا معا إلى الصالة. كان الإفطار معدا. جلسنا إلى المنضدة. زحزحت مقعدك وأنت جالسة عليه إلى جواري لتكون كتفي فى كتفك فأظل أشعر أنك معي، أنك لا تفارقيني، أنك لن تفارقيني، أنك طول الوقت والشعور معي. تفصلنا البحار، والمسافات، والصمت، والريح، لكنك معي، من مطلع النهار معي، لحظة بلحظة، حتى آخر الليل حينما أرقد فتقتربين مني وتميلين بصدرك على صدري وتملئين روحي بجمال عينيك، وتضحكين فيتأرجح قلبي من الفرح. يا له من يوم سعيد هذا الذي جرت تفاصيله فى رجائي وأنت بعيدة، تفصلنا البحار، والريح، والشموس، وتصلنا أوقاتنا السعيدة، كأننا لم نبتعد، كأننا بالعكس نقترب، كأننا لم نفترق، كأننا بالعكس نتلاقى، كأننا لم نلزم الصمت، كأننا بالعكس نتبادل الحديث، حتى أن الكؤوس على المنضدة ترتج من صدى محبتنا.

-6-

أخاف أن أفقدك، وأنا لم أجدك بعد. أخاف ألا أراك، وبصري لم يقع عليك بعد. وأخشى أن تتوهي مِنّي، وأنت مازلت لا تدرين أني هنا على هذه الأرض. أشد قبضتي على خيالك مثل طفل يمسك بقروش قليلة تضوي مثل نجوم فى سماء كفه. أمضي على الطريق، نحيفا، محاذرا. أدعو الله ألا تمطر، ألا تشمس، ألا تقمر، وأن يظل الكون كله ثابتا لتبقى هذه اللحظة من دون تغيير. أخاف أن أفقدك إذا ظهرت وتبين أنك لستِ أنتِ، أن أفقدك إذا تكلمت وتبين أنه ليس صوتك، وإن نظرت وتبين أنها ليست عينيك. أخاف، وأحكم قبضتي على النور الذي يتسلل شعاعا من بين أصابعي. أمضي. أحفر الحقول بأظفاري ربما أجدك هناك، بذرة وردة. أقلِّب مياه الأنهار بذراعي ربما ألقاك قطرة ندى. أرفع رأسي للسماء أفتش فى اتساعها: أين أنت بين الطيور العالية؟ أي شعور باليتم وأي إحساس بالظلم أنت؟ وحينما يفور الشعور بالقهر، وتدب الخطوات على الطريق أجثو على ركبتي، أتضرع إلى الله أن

يدلني: أي خطوة أنت بين ملايين الخطوات؟. أخاف أن أفقدك وأنا لم أجدك بعد. أخاف ان تضيعي مني وأنا لم ألقكِ بعد. تقولين: لا تخف. أسأل: أهذه أنت؟. تقولين: لا تغتم. أسأل: أهذه أنت؟ أجيبي! تلوح عيناك عاليتين، جميلتين، مشرقتين، تلمعان، تضحكان. يدوي صوتي بالرجاء: أنت؟ أهذه عيناك؟ أشد قبضتي على خيالك فى كفي، وأمضي، وشعاع يقودني إليك.

-7-

أنتِ الشهقة حينما أتنفس وأنت الزفير. وأنتِ نبرتي وصوتي حين أتكلم. وحين أبسط راحتي يدي أمامي أراك فيهما زهرة، الغصن من عروقي واللون من دمي. أغلق عيني في المساء وأعلم أنك أنتِ من يحرك جفني إلى أسفل، أفتحهما في الصباح وأعلم أنك أنتِ من يحرك جفني إلى أعلى. وعندما أنهض من مكاني أشعر أنك أنتِ التي تدفعين قدمي إلى الأمام، خطوة وراء خطوة. لم يبق مني شيء ليس أنتِ.

-8-

تولينني ظهرك وتنصرفين من دون كلمة. تبتعدين كما ينزلق النور فى صمت من سطح بيت إلى آخر. تغادرين. أبقى وحدي وقد خلت أرضي من سمائي. أحني رأسي ناظرا إلى كفيّ تضمان كل ما كان. السعادة التي أغلقت جفنيها بهدوء وتركتني أتحسس يديها الباردتين. أنساها؟ أم أحدق بسحر نظرتها؟ الانفعال الذي أشعل دمي؟ أخمده؟ أم أُتدفأ على جمره الباقي؟ أمطار الفرح؟ أردها إلى السحب التي جاءت منها؟ والنور؟ أرجعه إلى نجومه؟ أرجع كل ما كان بيننا بذرة بلا ورق؟ موجة بلا نهر؟ تغريدة بلا عندليب؟ أتأمل كل ما كان ويكون وكل ما سوف يكون. مازال النور بين كفي لكن أرضي خلت من سمائي.

****

جــراحـــــة

وقف دكتور طارق عند الرصيف الآخر يتطلع إلى شرفة الطابق الثالث من العمارة المقابلة. هنا يسكن "شهاب" الشاب الذي التقى به في المستشفى منذ خمس سنوات، حين أقبل عليه بين حارسين يطوقانه. وقف بينهما "ببلوفر" رمادي قديم وقميص وبنطلون باهت، يرتجف ،وعيناه لا تستقران. انحنى أحد الحارسين على حافة المكتب يظهر إشارة من إدارة السجن بالكشف وإجراء اللازم. قرأها ثم رفع بصره إلى شهاب. أحس الفتى بوقع النظرة المتفحصة فأدار رأسه بشفة مقلوبة يعتصر كفيه المعقودتين لأسفل. الثامنة مساء. جدران حجرة الأطباء بلونها الأخضر القاتم ترشح رطوبة. من الممرات تتناهى أصوات المرضى. نهض واقفا.ارتكز بأطراف أصابعه إلى المكتب. تقدم خارجا وهو ينصت لوقع خطوات الشاب خلفه ،وفي أعقابه الحارسان يخبطان بلاط الطرقة. دخل حجرة الكشف وحده مع شهاب. رفع الشاب جسمه إلى حافة السرير. خلع حذاءه من كل قدم بدفعة من طرف الأخرى. رقد. عرى بطنه. سأله عما يشكو منه. قال الشاب ممسكا بطرف الفانلة لأعلى" فتق". مد أنامله يتلمس بطنه فجأر الشاب :"آه. آه. آه". دهش. قال له:" ليس بك شيء. سليم كالحصان". اعتدل شهاب بجذعه على السرير. قال بانفعال: " كيف سليم؟". أكد له: "ببساطة سليم. المصاب بفتق بالكاد يستطيع أن يتنفس وأنت بسم الله ما شاء الله تزأر مثل أسود الغابات!". فتح شهاب عينيه على آخرهما منفعلا:" أنا حالتي خطرة، طارئة". أدرك دكتور طارق أن الشاب تمارض ليخرجوه من المعتقل ويقضي وقتا خارج الحبس. راح شهاب يقول كل ما يرد على عقله: "لن أرجع إلى السجن. قد أموت في الطريق وستكون أنت المسئول. لن أرجع. أتفهم؟". بالطبع يفهم. وعليه الآن أن يتخذ القرار لأنه بالمصادفة الطبيب المناوب في تلك الليلة. دنا بشفتيه من أذن الشاب. قال له بصوت خفيض:"لا أستطيع أن أستبقي أحدا هنا من دون أن تكون حالة طارئة فعلا. أتفهم؟". سأله شهاب وقد بدأ الأمل يراوده:" وما العمل؟". قال له دكتور طارق:" لابد من إجراء عملية،أي عملية شكلية". هتف شهاب من دون تردد:" ماشي.عملية". قال دكتور طارق بنبرة ما بين التقرير والاقتراح:"أبسط عملية هي فتق صغير تحت الصرة". تقلقل شهاب على سرير الفحص: " ممتاز. أسبوع مثلا؟". قال له:" نعم. ستقضي أسبوعا خارج الحبس". ابتسم الاثنان أخيرا.

بعد ربع ساعة كانت حافة المشرط تلمع تحت كشاف الضوء ويد الدكتور طارق تهبط بها في بطن الشاب تجتز قطعة لحم وردية صغيرة مقابل أسبوع صغير من الحرية. بعد قليل خاط الجرح. خلع القفاز الطبي الأبيض. طهر يديه بينما كانوا ينقلون الولد إلى حجرة منفردة في حراسة شاويش لم يفارق باب الحجرة. اتجه دكتور طارق إلى حجرة الأطباء. كانت إحدى الممرضات قد أعدت له كوب الشاي. كن يعرفنه بحكم العمل. دمثا لطيفا، لكنه في الوقت ذاته انفعالي، يتقد وجهه وترتجف أطراف أصابعه في أي نقاش. جلس يدخن سيجارة سارحا في ملامح

شهاب الذي بدا تحت التخدير غائبا في سعادة حلوة. قضى شهاب سبعة أيام في المستشفى صرف معظم أوقاتها واقفا أمام شباك حجرته، ضاغطا بيده على بطنه، سارحا ببصره في حديقة المستشفى وجزء من شارع يلوح خلفها. تردد عليه دكتور طارق كل صباح ليراجع التئام الجرح. ظهر اليوم الثامن أبصره دكتور طارق وهو يهبط على السلم بين الحارسين في طريقه للخروج. تبادلا نظرة خاطفة. وانقضت بعد ذلك خمس سنوات لم يسمع خلالها دكتور طارق شيئا عن شهاب ولم يره. بقيت منه استمارة دخول المستشفى المسجل فيها اسمه وعنوانه. في تلك السنوات الخمس كان ثمة شيء ما يروح ويجيء بقلق كلما تذكر دكتور طارق ذلك الشاب. كان يسأل نفسه أحيانا:" هل قمتُ بما ينبغي في تلك الليلة؟ أم أنه كان علي القيام بشيء آخر؟ شيء مثل ماذا؟ أي شيء؟ ". لم يستطع أن يقصي السؤال ولا أن يجد له جوابا. طرأ له أكثر من مرة أن يبحث عن شهاب ويزوره. الآن بعد خمس سنوات قادته قدماه إلى حيث يسكن شهاب، ووجد نفسه يقف متطلعا إلى شرفة الطابق الثالث، مترددا. هبط ببصره إلى ما بين قدميه. سيصعد. نعم. لكن ألن يستغرب شهاب الزيارة؟. لكن كم يود أن يعرف إن كان شهاب سوف يستقبله بترحاب أم على العكس بنظرة لوم صامت. سيصعد. يجلسان. يتذكران ما جرى وقد يضحكان، وسوف يزول ذلك القلق.

قطع الشارع إلى رصيف العمارة مشتتا من الجو الحار والضجيج. ارتقى الدرج على مهل. في الطابق الثالث شاهد لافتة نحاسية باسم والد شهاب. لبث لحظة يفكر بقلق ثم ضغط على الجرس. بعد قليل انفتح الباب وبرز شهاب في بيجاما غير مكوية وبيده مفك كهرباء. تطلع إلى دكتور طارق بنظرة من لم يتعرف إليه وفجأة اشتعلت عيناه. ابتسم هاتفا:

ـمعقول؟! دكتور طارق السقا؟

ـ تذكرتني إذن؟

صاح:

ـطبعا يا دكتور! خطوة عزيزة.

قاده شهاب إلى صالة بها كنبة وكرسيان وتلفزيون قديم. أزاح ستارة عن شباك عريض ليدخل النور ثم التفت إلى الطبيب. هو نفسه دكتور طارق برقبته الطويلة النحيلة وعينيه الساهمتين. لم يتبدل تقريبا. قال مرحبا:

ـ شاي أو عصير؟

ـ شاي.

تناهى من الداخل صوت سيدة كبيرة تنادي" يا شهاب".

ـدقيقة واحدة يا دكتور. ماما تنادي.

غاب وعاد مرتديا بنطلون وقميصا وقد رتب شعره. من خلفه أقبلت شابة أصغر منه بضفيرة خلف ظهرها في ثوب مشجر. وضعت صينية عليها قدح شاي وزجاجة مياه وهي تتطلع إلى الطبيب بفضول مهذب.

قال دكتور طارق وهو يتناول القدح:

ـ كنتُ بالقرب من بيتك، قلتُ أمر أطمئن على أخبارك.

- كثر خيرك. أنا تمام. أنهيت كلية الهندسة العام الماضي لكن ما زلت بلا عمل. أنت تدري الظروف.. حضرتك أخبارك كويسة؟
- لا جديد. شغل ليل نهار. مستشفى وعمليات.
قالها وهو يرفع حاجبيه بنظرة تذكير: عمليات بجد!
قهقه الاثنان. أضاف الطبيب:
- مازلت أبتسم في سري كلما تذكرت زعيقك بعلو صوتك في المستشفى بدعوى أن عندك فتق!
ضحك شهاب:
-زملائي في الزنزانة قالوا لي لو عاوز تخرج شوية انتظر حتى تغلق مستشفى المعتقل أبوابها في السابعة مساء، ثم اصرخ واعمل أنك مريض سينقلونك مثل كل الحالات الطارئة إلى المدينة. سألتهم" وهناك ماذا أقول؟". تطوع أحدهم من دون ذرة تفكير" قل عندي فتق يؤلمني"!
ضحك الطبيب: كل ذلك الزئير من مريض المفروض أنه يتنفس بالكاد !
سأل شهاب: وحضرتك مازلت في القسم نفسه؟
- نعم. رئيس القسم منذ عامين.
جلس دكتور طارق مبتسما بمودة وقد أحنى ظهره طفيفا ناحية شهاب مما شجعه على أن يقول له:
-والدتي ست كبيرة ومريضة قوي. ممكن آتي بها إليك لفصحها؟
-طبعا. طبعا. هاتها، وسنقوم بكل ما يلزم.
أخرج بطاقة بها أرقام تليفوناته وناولها له.
أوضح شهاب بشعور بالحرج:
-لاتؤاخذني فقد توفي والدي ومازلنا أنا وأختى نجري وراء أوراق تسوية المعاش.. لذلك.. فقط ..
ربت الدكتور على ركبة شهاب:
-ولا يهمك. كلها أشياء بسيطة.
سرح شهاب ببصره. رشقه الطبيب بنظرة خاطفة. بدا له أكبر من صورته التي يتذكره بها. همدت الحدة في ملامحه، والزهو الذي رافقه وهو سجين فارقه وهو حر.
قال الطبيب:
-أنا سعيد أني شفتك وأنك بخير.
-أنا كمان. حضرتك شرفتنا.
تناهض دكتور طارق من جلسته على طرف الكرسي ثم استقر مكانه. أشعل سيجارة بعناية وتركيز وأنامله ترتجف. سأل بخفوت:
-لكن قل لي ياشهاب .. صدقا.. أتعتقد أني قمت بما في وسعي حينذاك؟
استفسر شهاب:
- كيف؟ ماذا تقصد؟
بدا وجه الطبيب مثل سماء تعتم قبل الرعد:

- أقصد أكان يمكن.. أو كان ينبغي عليَّ القيام بشيء آخر؟
-شيء مثل ماذا؟
تمتم دكتور طارق بصوت غائر في الحيرة:
-لا أدري. شيء ما ، لا أدري بالضبط .
بسط شهاب كفه كأنما يطرد الظنون :
- أنت ساعدتني أن أقضي أسبوعا حرا. ماذا إذن؟ كثر خيرك!
ظهرت في عيني دكتور طارق نظرة أقرب إلى الرجاء:
- حقا؟ تعتقد ذلك.. حقا؟
- طبعا يادكتور.
نظر إليه بشك . سأل بعد صمت:
-وأنت؟ أنت.. أكنت تقبل بعملية أكبر إن كانت تهبك شهرا كاملا من الحرية؟
نظر شهاب في خط مستقيم فوق رأس الطبيب. شرد يتعلق بفكرة تلمع على سطح ماء مظلم ثم قال ببطء:
-نعم. نعم. أظنني كنت أقبل. لا تتخيل سعادتي حين نقلتني السيارة تلك الليلة من المعتقل إلى الشوارع المضاءة والناس في ملابس ملونة. كنت أتنفس وأنا أجول ببصري من داخل السيارة بين أنوار المحلات وظلال الأشجار وحركة الناس من دون قيد. نعم. أظن أنني كنت أقبل.
تبادلا نظرة مثقلة بالتأمل. فجأة شملت دكتور طارق علامات نشاط مباغت فنهض وصافح شهاب:
-مر عليَّ مع والدتك وسنقوم باللازم.
عند باب الشقة هز الدكتور يد شهاب بين كفيه بحرارة. ثم نظر في عينيه لحظة بأمل وثقة. أوْلَاه ظهره واتجه نحو دوران السلم، وقبل أن يختفي غمغم بشيء ولوح بيده في يأس وحيرة.

****

الكاتب د. أحمد الخميسي

قاصّ وكاتب صحفي. مواليد القاهرة 1948. دكتوراه فى الأدب الروسي جامعة موسكو عام 1992. عضو نقابة الصحفيين واتحاد كتاب مصر. عمل فى الصحافة بدءًا من عام 1964. ظهرت قصصه القصيرة فى العام ذاته فى المجلات المصرية. قدمه الكاتب الكبير يوسف إدريس لمجلة الكاتب المصرية عام 1967.

- عمل أثناء وجوده للدراسة فى روسيا مراسلاً صحفيًا لجريدة الاتحاد الإماراتية وإذاعة دولة الإمارات من 1989 حتى 1998، ثم من القاهرة مراسلاً لمجلة الآداب البيروتية ثلاث سنوات من 2006 حتى 2009.

- كرمه اتحاد الأدباء العرب لدوره فى ترجمة الأدب الروسي إلى اللغة العربية. كرمه اتحاد الكتاب الروس، ومجلة ديوان العرب.

- حاز جائزة "نبيل طعمة" السورية عن مسرحيته "الجبل" عام 2011

- جائزة ساويرس عن مجموعته القصصية "كناري" كأفضل مجموعة بين كبار الأدباء لعام 2011، وعن مجموعته " أنا وأنت" 2017.

- يكتب فى الصحافة المصرية والعربية بانتظام .

- نظم ورشتين فى فن كتابة القصة القصيرة.

أعماله القصصية:

1- "الأحلام، الطيور، الكرنفال" مجموعة قصصية - الهيئة المصرية - 1967 مجموعة بالاشتراك مع أحمد هاشم الشريف ومحمود مؤنس

2 – "قطعة ليل" مجموعة قصصية - دار ميريت بالقاهرة - يوليو 2004- وصدرت منه طبعة ثانية عن كتب خان.

3 – "كناري" مجموعة قصصية مؤلفة - كتاب اليوم، أخبار اليوم - ديسمبر 2010 - حازت على جائزة ساويرس فرع كبار الكتاب كأفضل مجموعة قصصية لعام 2011

4- "رأس الديك الأحمر" - مجموعة قصصية مؤلفة - كتب خان - القاهرة - ديسمبر - 2012

5- "الأجيال الثلاثة" مجموعة قصصية آنا أحمد الخميسى - أحمد الخميسي - عبد الرحمن الخميسي - دار كيان - القاهرة - يناير 2015.

6-مجموعة قصصية " أنا وأنت " دار كيان القاهرة 2015 فازت بجائزة ساويرس كأفضل مجموعة قصصية بين كبار الأدباء فى2017

7- مجموعة قصصية "ليل بلا قمر" هيئة الكتاب المصرية ديسمبر 2017

<u>فى الترجمة:</u>

1- "معجم المصطلحات الأدبية" ترجمة عن الروسية عام 1984

2- "المسألة اليهودية" للأديب العالمي دوستويفسكي - مجلة أدب ونقد - العدد رقم 69 - مايو 1991، وأعادت مجلة "زرقاء اليمامة" عام 1996 نشر نفس الترجمة، ثم تضمنها كتابه "أوراق روسية".

3- "كان بكاؤك فى الحلم مريراً" قصص مترجمة عن الروسية - دار المستقبل - 1985 .

4- "قصص وقصائد للأطفال" ترجمة - اتحاد الكتاب العرب دمشق عام 1998.

5- "نجيب محفوظ فى مرايا الاستشراق" ترجمة وإعداد - دار الثقافة - 1989 - وصدرت منه طبعة ثانية عن المجلس الأعلى للثقافة.

6- "أسرار المباحثات العراقية السوفيتية فى أزمة الخليج" - تقديم وترجمة- 1991 - مكتبة مدبولي.

7- "نساء الكرملين" - مكتبة مدبولي - 1997 .

8- "رائحة الخبز" - قصص مترجمة - هيئة قصور الثقافة - 1999.

9- "لقاء عابر" قصص روسية مترجمة - كتاب اليوم الأخبار- فبراير2014.

<u>الأعمال المسرحية:</u>

1- "الجبل" مسرحية - هيئة قصور الثقافة - 2011- فازت بجائزة نبيل طعمة السورية عام 2011

<u>الأعمال السينمائية:</u>

1- حوار فيلم "عائلات محترمة" عام 1968

2- حوار فيلم "زهرة البنفسج" 1972

<u>الدراسات :</u>

1- "موسكو تعرف الدموع" دراسات - كتاب الأهالي - القاهرة 1991 .

2- "الصعود إلى الجبال الشيشانية" - كتاب الاتحاد - دولة الإمارات 1995

3- "الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين" - دار الهلال، القاهرة - 2008

4- "عيون التحرير فى الأدب والسياسة" - 2011 - دار كيان - القاهرة

5- "أوراق روسية" - مقالات - كتاب اليوم الأخبار - مايو 2013

إيميل: ahmadalkhamisi2012@gmail.com

- القاهرة - مدينة نصر

***